

# التكفير



ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار



مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٢ - البحث ٧

## "الجدور والمظاهر العقديّة للتكفير في النصرانية"

د. محمد عبد الحليم بيشي  
جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإسلامية  
قسم العقائد والأديان

تعتبر النصرانية من أكبر الديانات التي تتنظم فيها أمم وشعوب كثيرة، وهي في صيرورتها التاريخية والعقدية لم تسلم من ظواهر التكفير والانشقاق، وما يتبعها من حروب دينية داخلية وخارجية بين مختلف طوائفها ومذاهبها. حتى إنه ليمكننا المجازفة بالقول بأن تاريخها هو التكفير العام والتكفير المتعدد، ولا يمكننا أن نستكف عن القول بأن ذلك أدى إلى وجود ديانات مختلفة داخل النصرانية. والذي يعضد هذا هو التبصر في المواقف العقدية للمذاهب النصرانية فيما بينها حيث نجد إفراطاً في مقالات التكفير، التبديع، الهرطقة، الانشقاق.. إلخ.

كما نجد أثر ذلك في التشريعات الحياتية في قضايا الزواج والميراث والصلاة والدفن، والفاجمة الكبرى هي في استقرار الحروب الدينية بين الطوائف النصرانية في أواخر ما اصطلح عليه بعصور الإيمان المظلمة وماتلاها في بدايات عصر النهضة، وهي التي تماهت تاريخياً مع العصور الوسطى، تلك الحروب التكفيرية التي أورثت أوروبا الخراب والدمار واهتزاز الكيانات السياسية والتأخر الفاضح في الحياة الثقافية والاقتصادية بسبب مقالات التكفير التي كان ينبعث شررها من المجامع الدينية ومن كنيسة روما الرسولية ضد الطوائف الإصلاحية الجديدة وضد الكنيسة الأورثوذكسية الشرقية. وصنوها الكنيسة المرقسية القبطية، وهو ما تجلى في العلائق المقطوعة بين الكنائس الثلاث: الكاثوليكية، الأورثوذكسية، البروتستانتية.

إلا أن أبرز نتيجة لميراث التكفير في المسيحية هي خسارة الكنيسة لمواقعها أمام الحركة العلمانية الصاعدة أواخر عصر الإيمان وبدايات عصر النهضة، فالأزمة الأخلاقية التي أعقبت الحروب الدينية التكفيرية



ولدت يأسا عاما من الدين المسيحي الذي لم يضمن لأتباعه السلم الاجتماعي، فقلب ظهره للكنيسة التي أوت إلى جحورها، حيث صار الدين الطبيعي والعلمانية والإلحاد هي البدائل الثقافية عن دين متهالك لم ينتج طوال قرون عديدة غير ثقافة التكفير والهرطقة والتبديع والانشقاق، حتى وصلنا إلى العصر الحديث و العالم المعاصر الذي خَلَف الميراث التكفيري وراء ظهره، واتخذ من العلمانية مفردة واحدة لصياغة العالم والقانون والإنسان بعيدا عن ميراث التكفير والحروب الدينية. وقد قسمنا هذا البحث إلى الفروع الآتية:

## الفرع الأول

### النصوص المؤسسة للتكفير في النصرانية

تستند ثقافة التكفير والتحريم والهرطقة والانشقاق وسائر المترادفات التكفيرية في المسيحية إلى جملة جذور مؤسسة لها في داخل الكتاب المقدس وخارجه من قرارات المجامع المسكونية وبراءات التحريم من الكنيسة الرسولية البطرسيية، وهي من الوفرة والكثرة بمكان، وحيث إن الكنيسة الكاثوليكية خاصة تقدم نفسها سفينة للنجاة فترى أن لا خلاص ولا حياة ولا خلود إلا لمن ركبها ولاذ بحماها، وإلا كان من الغرقى الهالكين في جهنم أبداً.

تبني الكنيسة الثقافة التكفيرية على نصوص العهدين القديم والجديد. أي التوراة ولواحقها من الأسفار المقدسة، ثم الإنجيل الشامل للأنجيل الأربعة و أعمال الرسل<sup>(١)</sup>.

#### أولاً: نصوص العهد القديم:

التوراة المحرفة مليئة بالنصوص المتعددة في تكفير المخالفين للديانة اليهودية، بله الأعراق الأخرى غير اليهودية بحجة وبغير حجة أو محجة. وهو ما يزيد من التشكيك في سلامة النص المنقول من التوراة، مع القطع بأن التوراة الموجودة محرفة بنص القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ط١، دمشق، دار القلم، الدار الشامية، ١٩٩٠، ص ٣٩-٤٦.

(٢) سورة المائدة الآية ١٣.

## فمن تلك النصوص التكميرية التي اعتمدت في النصرانية للتوسع في التكفير الشرعي وغير الشرعي ما يأتي:

أ- التكفير القائم على أساس العرق والجنس، ومن ذلك ما ورد في سفر العدد: "لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم، فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص".<sup>(١)</sup>

وبناء على هذا المفهوم العرقي للدين تم إكفار المخالفين و استباحة دمائهم وأموالهم وأوطانهم، كما هو الأمر البين في تتبع الحروب الدامية التي تكلمت عنها التوراة المحرفة ضد شعوب الشرق القديم مثل الأدوميين والأموريين و الكنعانيين وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

وتبرير ذلك لم يكن لمجرد كفرهم و وثيتهم، وإنما لكونهم لا ينتمون للشعب المختار المختص وحده برسالة السماء كما يزعمون.

ب - التكفير في المفاهيم العقدية والتطبيقات الشرعية دون المرور بالتحقيق والاستتابة والمراجعة، إذ قضت نصوص التوراة بتكفير كل مرتد وساحر و متمرد على الشريعة. فمن تلك النصوص الموجبة للتكفير الجمعي والفردى المتعلق بالرجوع إلى الوثنية ما جاء في قصة عابدي العجل الذهبي عندما ذهب موسى عليه السلام للميقات في جبل الطور، كما هو النص في قوله تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾<sup>(٣)</sup>، وقد ذكر المفسرون القصة وكيف عكف بنو إسرائيل على تقديس العجل بإغواء من السامري وفتنته لهم عندما صنع لهم عجلا من الذهب المسروق من المصريين، ومع أن هارون عليه

(١) سفر العدد: الإصحاح ٧(٦-٧)ص ٢٣٩.

(٢) انظر: سفر يشوع: الإصحاح ١٢/ سفر القضاة الإصحاح ١١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

السلام حاول تسيهم مرارا لم ينتهوا<sup>(١)</sup>.

وكانت العاقبة أن أمر موسى عليه السلام سبط اللاويين بقتلهم، فقتلوا ثلاثة آلاف رجل في يوم واحد، وكانت ثمرة استجابتهم أن خصهم موسى عليه السلام بالأوامر الكهنوتية ورعاية الشعائر دون من سواهم.

كان هذا هو التشريع الموسوي بعقاب الناكسين عن الشريعة، وهذا التشريع ربما كان مناسباً لزمانه لأن بني إسرائيل طبعوا على قسوة القلوب فاستوجبوا ذلك العقاب كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولكن الكنيسة ستستخدمه في غير وجهه وتجعله مفتاحاً لكل التطبيقات التكفيرية التي تميزت بالصرامة من حيث خلو محاكماتها من الحوار أو الاستتابة لإرجاع المضللين أو المكفرين أو المرتدين.

ج - تكفير وتحريم المدن: لقد اتسمت التطبيقات التكفيرية بالقسوة الشديدة انطلاقاً من التكفير الجمعي و استباحة الدماء في المدن التي يظهر فيها الضلال والنكوص عن الشريعة، ولتأكيد هذه الحقيقة التي ستطبع الديانة النصرانية في معاملتها مع المخالفين من مهرطقين ومجدفين ومنشقين، فإنه يجدر بنا أن نقرأ هذه النصوص اليهودية<sup>(٣)</sup> المتعلقة بتحريم المدن واستعراض المخالفين، حيث يعاقب الكل بالحرق والتدمير بجريرة البعض المنحرف، جاء في سفر التثنية: "إن سمعتم عن إحدى مدنكم التي يهبها الرب"

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية ٢٠٠٠ ج٧ ص ١٨١.

(٢) سورة البقرة الآية ٥٤.

(٣) التوراة كتاب الله، أنزل الله فيها الهدى والنور، ولا تليق بها هذه الخرافات ولا يجوز أن تنسب إليها.

إلهمكم لتسكنوا فيها أن بعض الفاسقين قد خرجوا من بينكم، وذلّلوا سكّان مدينتهم قائلين: لنذهب ونعبد آلهة أخرى غريبة عنكم، فافحصوا الأمر أوّلاً، وتحقّقوا منه بدقّة، فإن تبين لكم صدقه، وثبت أنّ هذا الأمر الشنيع قد جرى فعلاً، فاقضوا قضاء على سكّان تلك المدينة، وعلى بهائمهم واقتلوهم بحدّ السيّف، واجمعوا كل أمتعتها وكوموها في وسط ساحتها وأحرقوا المدينة مع كلّ أمتعتها كاملة، انتقاماً للربّ، فتصبح تلاً خراباً إلى الأبد لا تبني بعد" (١).

وهو ما يذكرنا بما تفعله الجماعات التكفيرية في ديار الإسلام اليوم من التفجيرات الجماعية بحكم ما تدعيه من مشاركة الكل في فعل المنكر أو الأمر به، أو الرضا والسكوت عنه.

د - قتل ذوي الأرحام مباشرة دون الرجوع إلى السلطة الدينية أو القضائية: "وإذا أضلك سرّاً أخوك ابن أمّك أو ابنك أو ابنتك، أو زوجتك المحبوبة، أو صديقك الحميم قاتلاً: لنذهب ونعبد آلهة أخرى غريبة عنك وعن آبائك من آلهة الشعوب الأخرى المحيطة بك أو البعيدة عنك من أقصى الأرض إلى أقصاها، فلا تستجب له ولا تصنع إليه، ولا يشفق قلبك عليه، وتترأّف به، ولا تستر عليه. بل حتما تقتله، كن أنت أول قاتليه، ثمّ يعقبك بقيّة الشّعب، ارجمه بالحجارة حتّى يموت،.. فيشيع الخبر بين الإسرائيليين جميعهم، ويخافون ولا يعاودون ارتكاب مثل هذا الأمر الشنيع بينكم" (٢). وهو ما ستستعمله الكنيسة فيما بعد في منح صكوك الغفران لكل من ساهم في الدفاع عن آرائها، إذا بدأ بتطهير الرجس من بيته وذوي قرياه وجيرانه.

هـ - قتل المرتد الكافر دون استتابة أو مراجعة: ومن ذلك ما جاء في سفر

(١) سفر التثنية: الإصحاح ١٣ (١٢-١٧) ص ٢٤٨.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح ١٣ (٦-١١) ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

التثنية: " إذا ارتكب بينكم رجل أو امرأة مقيم في إحدى مدنكم التي يورثكم إياها الربّ إلهكم، .. فغوى وعبد آلهة أخرى وسجد لها أو للشمس والقمر، أو لأيّ من كواكب السّماء ممّا حظرت عليه عليكم.. فأخرجوا ذلك الرّجل أو تلك المرأة الذي ارتكب ذلك الإثم خارج المدينة، وارجموه بالحجارة حتّى يموت، لا تقتله إلا بعد أن تقوم عليه شهادة اثنين أو ثلاثة، ويحظر أن تقتل بموجب شهادة واحد فقط ويكون الشهود هم أوّل من يرمونه، ثمّ يتعاقب عليه الشّعْب، فتستأصلون عندئذ الشرّ من بينكم"<sup>(١)</sup>.

و - قتل الساحر والساحرة كما جاء في سفر الخروج: " لاتدع ساحرة تعيش"<sup>(٢)</sup>. وهو ما سستخذّه الكنيسة ذريعة لتكفير مخالفيها بحجة قراءة السحر واستعماله، ومن المعلوم أن الاطلاع على كتب العرب ومنتجاتهم العلمية في علوم الرياضيات والكيمياء والفلك كان يعد سحرا في تقنيات مكتب المحافظة على الإيمان الفاتيكاني في بدايات النهضة الأوروبية.

ز- عدم التخفيف في عقوبة منتهكي الطقوس الدينية لحرمة السبت، فقد جاء في حق أحدهم: " لترجمه الجماعة كلها بالحجارة خارج المخيم لأن عقابه القتل حتما"<sup>(٣)</sup>.

لقد تميزت الأحكام اليهودية بالصرامة تجاه المخالفين حيث إن عقوبات القتل والرجم والحرق والتدمير الكلي تنال المكفرين دون مراجعة أو حوار أو استتابة، وربما كان الدافع لهذا هو إقامة الحواجز الجزائية ضد الانحراف العقدي الذي كان ينال المجتمعات اليهودية نظرا لهشاشة البنية الإيمانية، وضبابية الرؤية العقدية في ديانة اتسمت بالانغلاق والحذر من الأغيار

(١) التثنية، الإصحاح ١٧ (١-٧) ص ٢٥٢.

(٢) سفر الخروج: الإصحاح ٢٢، (١٨) ص ١٠١.

(٣) سفر العدد: الإصحاح ١٥ (٣٥) ص ١٩٥.



المخالفين، هذه الأحكام القاسية توارد عليها ربانيو اليهود للحفاظ على الديانة، فنجد في شروح موسى بن ميمون الذي يعرف بموسى الثاني (١٢٠٤م) ما يعضد هذه الأحكام، حيث جاء في أحكام التكفير قوله: "وأما إدانة المحكمة بالموت فتجدها في الأمور العظيمة في فساد اعتقاد، أو في مظلمة عظيمة أعني في الشرك، وفي السبب لكونه يثبت اعتقاد حدث العالم<sup>(١)</sup>، وفي النبوة والشيخ العاصي لعظيم الفساد.... وأيضا كل أنواع الشرك يعاقب عليها بالموت من المحكمة إلى أصول عبادتها مثل الدعوة إليها، والمتبئى باسمها، والمجيز على النار والجآن والتابعة والسحر"<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان التنقص للديانة جماعيا فإن العقاب يشمل الجميع المجرم و البريء، والقتل والحرق يحيق بهم كلهم، بل إن أموالهم يحرم الانتفاع بها لأنهم في حكم الملعونين والمحرومين، يقول ابن ميمون: "أناس المدينة الضالّة الذين يقتلون قتل كفر لا قتل قصاص، ولذلك تحرق أموالهم وليست لورثتهم، مثل من حكم عليه بالموت من المحكمة، وهكذا أيضا قولي في جمع من إسرائيل تمالئوا على التعدي على أي فريضة كانت، وتحكموا متعديين، فإنهم يقتلون بجملتهم..لأنهم ارتدوا عن الدين كله"<sup>(٣)</sup>.

ويعني هذا أن فإن الرأي الفقهي الرباني الذي ستستثمره الكنيسة فيما بعد يتّسم بالصرامة تجاه المرتدين، وهي صرامة آتت أكلها في الحفاظ على الديانة اليهودية، نع أنها كانت سالبة للسلطة الزمنية لآماد كثيرة، لأن

(١) انتهاك حرمة السبب عند ابن ميمون هو فعل دال على عدم الإيمان بما جاء في سفر التكوين بأن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في السابع، ولذلك وجب تقديسه بالعبادة والشكر وعدم العمل، والتارك لذلك كأنه يقول بقدوم العالم، الأمر الذي نقضه ابن ميمون في فصول كثيرة من كتابه. انظر: دلالة الحائرين ص ٣٥٢ / سفر التكوين:إصحاح ٢ ص ٣.

(٢) موسى بن ميمون: دلالة الحائرين ص ٢٠١

(٣) موسى بن ميمون: دلالة الحائرين ص ٣٥٤.

العلائق الاجتماعية في داخل الجماعة كانت من الفعالية بمكان، كما أن الضغوط الخارجية من الأغيار زادت متانة وقوة.

ونجد تطبيقات تلك الآراء التكفيرية للمخالفين في تفسيرات النصوص الدينية، فالربانيون كانوا يكفرون فرقة القراءين<sup>(١)</sup> التي تنسب إلى عنان بن داود (ت٧٦٢) التي تميزت برفض النصوص الشارحة للتوراة كالمشنا و التلمود، فأعلن الربانيون كفرهم ونجاستهم وحرمانهم من رحمة الله، و منع الصلاة في معابدهم<sup>(٢)</sup>، و أيضا فإن دائرة التكفير التوراتية اتسعت لتشمل مدعي المشيحية، وتعتبر مسألة عيسى بن مريم عليه السلام أهم القضايا، حيث يشير التلمود إلى أن صلب المسيح كما يدعون- تم بناء على قرار محكمة السنهدرين اليهودية، بسبب ادعائه المشيحية، وكل المصادر الكلاسيكية اليهودية تتحمل المسؤولية الكاملة عن ذلك، ولذلك يسمّى في المصادر اليهودية بأسماء مقبّية<sup>(٣)</sup>. وهو ما جلب لليهود عداة المسيحيين على مرّ دهور كثيرة<sup>(٤)</sup>.

ويبنى على هذا أن النصوص المتعددة في العهد القديم-المزعوم- كانت التكاة المهمة لثقافة التكفير والتبديع في النصرانية، ويكفي للتدليل على ذلك مقارنة البراءات الفاتيكانية بمثيلاتها الربانية الحاخامية في قضية حديثة متعلقة بتكفير الفيلسوف بارزح سببنوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م)<sup>(٥)</sup> الذي انتقد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد<sup>(٦)</sup>، فأصدر المجلس الملي اليهودي

(١) حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ط٤، دمشق، دار القلم، ١٩٩٩، ص٢٤٨.

(٢) محمد بيومي مهران: بنو إسرائيل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ج٤ ص٥٦٦.

(٣) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩، ج٣ ص٣٤٠.

(٤) مارتن لوثر: اليهود وأكاذيبهم، ط١، الجيزة، مكتبة النافذة، ٢٠٠٧، ص١٠٩.

(٥) ديورانت ول: قصة الفلسفة، ط٤، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٥، ص١٩٣.

(٦) سببنوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ط٢، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، ١٩٨١، ص١٢.

بأمستردام فتوى بتكفيره وحرمانه من الميراث سنة ١٦٦٥. جاء فيها: " بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرّم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ اسبينوزا بموافقة الطائفة المقدّسة كلها، وفي وجود الكتب المقدّسة ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها، نصبّ عليه اللعنة، وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة، وليكن مغضوبا وملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله ونرجو من الله أن لا يشملّه بعبوه أبداً، وأن ينزل عليه غضب الله وسخطه دائماً ويحمّله جميع اللعنات المدوّنة في سفر الشريعة، ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذهم. وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة أو يتصل به كتابة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأن لا يعيش أحد معه تحت سقف واحد وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربع أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه"<sup>(١)</sup>.

لقد كانت النصرانية في تاريخها المليء بالتكفير والاحتراب تدلّل مراسيمها وبراءتها التكفيرية بالخلفية الشرعية للديانة اليهودية، فالكل يقتبس من مشكاة واحدة، ينيها باطل الأحبار والرهبان الذين غيروا الدين وحرفوا الملة، وصيروا الجنة حكرا على نسلهم المختار بزعمهم.

### ثانياً: نصوص العهد الجديد:

تستند الكنسية النصرانية في موضوع التكفير إلى مجموع النصوص المختلفة في العهد الجديد أي الأناجيل الأربعة (متى - يوحنا - لوقا - مرقس) وأعمال الرسل ورسائلهم. وهي نصوص معتمدة لدى الطوائف المختلفة استعملتها الكنيسة ضد مخالفيها من المهرطقين والمجدفين المبتدعين وناقدين للكتاب المقدس.

(١) هاشم صالح: مدخل إلى التثوير الأوروبي، ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٥، ص ١٩١.

فمن تلك النصوص ما أوردوه على لسان المسيح: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان، من يثبت فيّ وأنا فيه فذاك ينتج ثمرا كثيرا.. إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجا كالغصن فيجف ثمّ تجمع الأغصان الجافة، وتطرح في النار فتحرق"<sup>(١)</sup>.

والنص قد استعملته الكنيسة لتبرير حرق المكفرين والخارجين عليها بدلالة ما في النص من إحراق الذين لا يثبتون على دين المسيح. لأنهم انفصلوا عن روح المسيح التي تحل في قلوب المؤمنين وشاهد ذلك العشاء الرباني الذي يتناول فيه النصراني الخبز على أنه لحم المسيح، ويشرب الخمر على أنها دمه الذي سال تكفيرا لخطايا البشر كما يزعمون، وهذا هو الحلول المرفوض في عقائد المسلمين، فالكل يقف أمام الله فردا حيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

ومما نسبوه إلى المسيح زورا وبهتانا قوله في حقّ المعارضين على حكمه: "إني أقول لكم إن كلّ من عنده يعطي المزيد، وأما من ليس عنده ينتزع منه..وأما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأحضروهم إلي هنا، واذبحوهم قدامي"<sup>(٢)</sup>.

وورد أيضا في سفر أعمال الرسل: "فإن أخطأنا عمدا برفضنا للمسيح بعد حصولنا على معرفة الحقّ، لا تبقى هناك ذبيحة لغفران الخطايا، بل انتظار العقاب الأكيد في لهيب النار التي ستلتهم المتمردين، ويا له من انتظار مخيف، تعلمون أن من خالف شريعة موسى، كان عقابه الموت دون رحمة، على أن يؤيد مخالفته شاهدان أو ثلاثة، ففي ظلّكم كم يكون أشدّ كثيرا ذلك العقاب الذي يستحقّه من يدوس ابن الله"<sup>(٣)</sup>.

(١) إنجيل يوحنا:الإصحاح ١٥، (٥-٧) ص ١٦٠.

(٢) إنجيل لوقا:الإصحاح ١٩(٢٦-٢٧)ص ١٢٠.

(٣) أعمال الرسل:الرسالة إلى العبرانيين، الإصحاح ١٠(٢٦-٢٩)ص ٣٣٧.

وتفريعا عن هذه النصوص الموحية بالبراءة من مخالفي الكنيسة كان حكم هذه الأخيرة يسلط سيفها على رقاب المخالفين لأرائها ومعتقداتها وسلوكات بابواتها، فكانت أغلب نهايات هؤلاء المكفرين هي الموت حرقا تطهيراً لأفئدتهم وأجسادهم من لسعات الشيطان، حيث إن التاريخ الكنسي حافل بمشاهد المحارق التي تقام لنا لأصناف المهرطقين، والسحرة والمجدفين.

كما استندت الكنسية في إنشاء سلطتها المتعلقة بتتبّع المكفرين و المرتدين إلى جملة الإشارات الواردة في الإنجيل حول المعارضين والمعارضين على أوامر الكنسية، وهو ما أسس للسلطة المطلقة للكهنوت النصراني الذي حكم أوروبا دينيا وزمنياً دهورا وآمادا عديدة.

فقد ورد في الإنجيل المزعوم: "إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب إليه وعاتبه بينك وبينه على انفراد، فإذا سمع لك، تكون قد ربحت أخاك، وإذا لم يسمع، فخذ معك أخا آخر أو اثنين، حتى يثبت كل أمر بشهادة شاهدين أو ثلاثة، فإذا لم يسمع لهما فأعرض الأمر على الكنيسة، فإذا لم يسمع للكنيسة أيضا، فليكن عندك كالوثني وجابي الضرائب"<sup>(١)</sup>.

وبناء على ما سبق اتخذت الكنيسة مرجعيتها المطلقة في الأحكام العقديّة لتصحيح أو تخطئة ما تراه من الأحكام والأسماء تبعا لما تسفر عنه مجامعها المسكونية، استنادا إلى ما أورده على لسان المسيح: "فالحق أقول لكم إن كل ما تربطونه على الأرض يكون قد ربط في السماء وما تحلونه على الأرض يكون قد حلّ في السماء"<sup>(٢)</sup>.

(١) إنجيل متى: الإصحاح ١٨، (١٥-١٧) ص ٢٨.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح ١٨ (١٨ - ١٩) ص ٢٩.

وعليه فقد علا نجم الكهنوت، وصارت ميزته العليا مصادرة الآراء المخالفة واضطهاد المعارضين، والتتكيل بالمهرطقين والمجدفين بحجج النقاء العقدي والتعالى الدينى، مما جعل الكنيسة تؤسس لمبدأ الكبح العام تجاه المخالفين لآراء المجامع المسكونية.

وأدى هذا لأن تكون مسائل التكفير والحرمان الكنسي ذات حيز كبير في تاريخ القرارات الكنسية، بل إنه ليس من المجازفة في القول أن تاريخ النصرانية هو تاريخ التكفير المتواصل.

### ثالثاً: نصوص الآباء المؤسسين و المجامع المسكونية:

و هي النصوص التي رفعت إلى رمزية النصوص المقدسة، حيث إن المجامع المسيحية المتعاقبة هي التي قررت العقيدة النصرانية في صورتها النهائية، ولم يكن المرور إلى تقرير هاته العقيدة، دون الإطاحة بجماعات مسيحية كثيرة نالتها صيحات التكفير وبراءات التحريم المتوالية. وذلك أن جداول أعمال هذه المجامع المسكونية كانت تصدرها القرارات المتعلقة بالتكفير الجماعي والفردى لكل المخالفين لآرائها.

ولإدراك عمق الأزمة التي طالت النصرانية، فإنه يجدر بنا الطواف في قراءة قرارات هذه المجامع المسكونية، التي قفزت على النصوص المؤسسة للمسيحية، وجعلت التجربة التاريخية معياراً لصياغة العقيدة، حيث اعتبر الإجماع مصدراً رئيسياً لها، وكل خارج عنه سيكون مآله التكفير والحرمان. ولإدراك فداحة الوضع الذي تشابك فيه السياسي والديني فلنا أن نرصد أهم المجامع المسكونية، ونقرأ قراراتها البانية للتكفير والتكفير المضاد، ثم الاحتراب المذهبي، ثم الانشقاق الطائفي، وأخيراً الانقسام التاريخي.

وقبل ذلك فإن هناك اتفاقاً تاريخياً بين الباحثين على أن انتقال المسيحية من ديانة مضطهدة عانت الويلات من الأباطرة الوثنيين<sup>(١)</sup> إلى ديانة حاكمة مارست الأساليب ذاتها ضد مخالفيها خاصة مع اعتناق الإمبراطور قسطنطينين لها سنة ٣١٢م.

لكن الانتقال السياسي الوديعة صاحبه انتقال قيمي عنيف اتسم بالاضطهاد و الحرب للمخالفين. حيث تم فرض العقائد النصرانية بقهر السيف وحيث السلطة.

وفي هذا المقام نسوق شهادة ناقد مسلم قديم وهو القاضي عبد الجبار المعتزلي (٤١٥هـ) في معرض نقده لطرائق تقرير العقائد النصرانية التي اعتضد فيها الديني بالسلطوي حيث يقول: "وليس سيف حمل بباطل في جميع الأزمان مثل سيف النصرانية"<sup>(٢)</sup>.

وبعد بقرون يقول الناقد الأوروبي جون بيوري (١٨٦١-١٩٢٧م): "لقد قرّر قسطنطين الأكبر أن يعتنق المسيحية وكان هذا القرار الخطير فاتحة لألف عام عاشها الفكر في الأغلال، واستبعد العقل استبعاداً، وتوقفت فيها حركة العلم والعرفان، ويؤكد أن المسيحية اتخذت مبدأ التسامح حين كانت تعوزها السلطة، وحينما أصبح دينهم هو الدين الغالب على أمره وصار مدعماً بسلطان الدولة هجر مبدأ التسامح هجراناً"<sup>(٣)</sup>.

ولفهم المآلات التكفيرية للنصرانية لا بد من قراءة نصوص الآباء المؤسسين، واستفصال الكرسثيولوجيا أي العقائد المتعلقة بالثالوث، وكذا السوتريولوجيا المتعلقة بمفاهيم الخلاص الكنسية، وذلك بتتبع أهم المجامع

(١) شارل جنير: المسيحية نشأتها وتطورها، صيدا، المكتبة العصرية-د-ت-ص ١٦٩.

(٢) القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية-د-ت-ج-ص ١٥٨.

(٣) بيوري: حرية الفكر، مصر، لجنة القاهرة للتأليف والنشر-د-ت-ص ٣٥.

النصرانية التي صاغت العقيدة النهائية للناجين، وحددت الأسماء والأحكام التكفيرية التي أطاحت برؤوس الملايين في المحارق والمشانق، بسبب اعتماد التكفير والحرمان ثقافة وحيدة لا مرء فيها ولا محيد عنها، أما الحوار والنقاش فقد طوّح به أزمانا مديدة، ولم يطل برأسه إلا مع النهضة الأوروبية التي حيّدت الكنيسة، وجعلت الدين النصراني يولي الأدبار أمام العلمانية الصاعدة.

#### أ- مجمع نيقية (٣٢٥م):

أهم تلك المجمع على الإطلاق هو مجمع نيقية، إذ اعتمدت فيه أهم المقررات العقديّة النصرانية، أو ما يعرف بميثاق الإيمان النيقاوي، وقد جرى المؤتمر برعاية الإمبراطور قسطنطين، وتقرّر فيه عقيدة تساوي الكلمة مع الأب في الذات والجوهر، وهو جمعت عقيدة "أريوس" وأتباعه القائلة بأن الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذا لم يكن الابن<sup>(١)</sup>.

كان هذا أهم انشقاق عانته النصرانية الأولى التي انفصلت إلى موحدة ومثلثة وتبعاً لذلك لعن أريوس (٢٥٦-٣٣٥م) وأتباعه، وحرّمت عقائدهم وأحرقت كتبهم، باعتبارهم كفاراً مهرطقين<sup>(٢)</sup>.

لا نكون مجازفين إن قلنا بأن هذا المؤتمر التأسيسي الذي تقررت فيه الصورة الكلية للعقائد النصرانية، والكتب المقدسة المعترف بها، قد رسم للنصرانية طريقتها العنيفة في التبشير، واستتصال المخالفين، والمسارة بإطلاق أحكام التكفير والحرمان اعتماداً على مظاهره للسلطة الزمنية لها.

(١) فنواتي جورج و لويس غردية: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية (ترجمة صبحي الصالح و فريد جبر) ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨ ج٢ ص٢٧٤ / أبوزهرة: محاضرات في النصرانية ص١٩٧.

(٢) تشينسكي (يان دوبار): أصداء الزمن الكنيسة وصراع الوجود، ط١، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٥. ص٦٦.



يذكر الدكتور توفيق الطويل:

" منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطة مدنية في عهد قسطنطين دخل مبدأ الكبح العام، واستمر عشرة قرون شداد رسف فيها العقل والقلب في الأغلال وعانى من قسوته اليهود والوثيون كثيرا، وقد حاول قسطنطين أن يضع حداً لشرورهم، فأصدر قانونا يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على من اعتنق المسيحية حجرا، وعقاب كل مسيحي تهوّد، ثم عدل عن العقاب إلى مصادرة الأملاك، فإن تزوج يهودي بمسيحية أعدم"<sup>(١)</sup>.

بدأ التنظيم القانوني الإجرائي للاضطهاد الكنسي مع مدونة الإمبراطور الروماني "ثيودسيوس" (٣٩٥م) التي تشمل ستة وستين مادة لمقاومة الهرطقة، وإلى جانبها بنود أخرى لاستئصال الوثنية ومناهضة الديانة اليهودية، والارتداد عن الدين، ومزاولة السحر"<sup>(٢)</sup>. أما قمة التقنين للتطبيقات الوحشية لأحكام الردة عن المسيحية النيقاوية فكانت مع القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)<sup>(٣)</sup> الذي صاغ فلسفة للاضطهاد قائمة على ما نسب للمسيح: "أجبروهم على اعتناق دينكم"، قائلا: "إن عقاب الملحدين هو من دلالات الفرق بهم وشواهد الرحمة، إذ كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي الذي ينتظر المرتدين عن المسيحية، إن الهرطقة توصف في الكتاب المقدس وكأنها نوع من الفسوق والمروق وعبادة الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل، لأنها قتل للأرواح، ومن أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب"<sup>(٤)</sup>.

وهكذا ستصل الكنيسة الرسمية بهاته التوجيهات الناظمة لإدارة

(١) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني ٥٤.

(٢) محمد الغزالي: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٨٣.

(٣) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، ط ٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧م.

(٤) الغزالي: التعصب والتسامح ص ٨٤.

الحوار الديني في داخلها، مما جعل النتيجة الحتمية للتاريخ هي الحروب الدينية، فلم يعرف تاريخ دين من الأديان الشقاق والصراع كالنصرانية.

### بـ مجمع القسطنطينية ٣٨١م:

إذا كان مجمع نيقية قضى بارتداد الموحدين القائلين ببشرية المسيح من أتباع الأريوسية، وسنّ سنة سيئة في اعتضاد الديني بالسلطوي لقمع الآراء المخالفة، فعلى مسلكه جاءت المجمع التالية، ومنها هذا المجمع الذي انعقد على عهد البابا "دمازيوس" (٣٦٦-٣٨٤م) والذي حضره مائة وخمسون أسقفا قرروا فيه ألوهية الروح القدس، وكونه ثالث أقانيم الثالوث المقدس<sup>(١)</sup>. وتبعاً لذلك لعن الأسقف مقدونيوس وأتباعه القائلون بعدم ألوهية الروح القدس، وقد عرف هؤلاء بالمقدونيين أو المرطونيين أو الوجهيين<sup>(٢)</sup>. ولا يخفى تأثير الأريوسية الموحدة فيهم، والحاصل أن هذا كان تكفيراً جماعياً للرافضين للاتجاه التثليثي في النصرانية المؤسسة.

### جـ مجمع أفسس ٤٣١م<sup>(٣)</sup>:

عقد هذا المجمع على عهد البابا "سلسستينوس" للرد على النساطرة القائلين بالطبيعتين الإلهية والإنسانية في شخص المسيح، فقرّر المجمع الطبيعة الواحدة ووحدة الأقتوم في المسيح لقطع الطريق أمام مسألة التجسيد والتأنيس والعودة إلى آراء الأريوسية. وكان هذا أيضاً تكفيراً جماعياً جديداً لطوائف كثيرة ساندت نسطور (٤٥١م) أسقف القسطنطينية المحروم والملعون بسبب هذا المجمع<sup>(٤)</sup>.

(١) أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) المقدونيون أتباع مقدونيوس أسقف القسطنطينية (٣٢٤-٣٤٦ ثم ٣٥١-٣٦٠) أنكروا ألوهية الروح القدس، كفرهم مجمع القسطنطينية. انظر فلسفة الفكر الديني ج٢ ص ٢٨٩/أصداء الزمن ص ٩٠.

(٣) انظر: أبو زهرة: نفسه ص ٢٠٩.

(٤) ويلترجون: الهرطقة في المسيحية (ترجمة جمال سالم) ط١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٧.

#### د- مجمع خلقدونية ٤٥١م:

عقد المجمع على عهد البابا "ليونطوس" (٤٤٠-٤٦١م) للرد على مذهب "الأوتبخية" المقابل لمذهب النساطرة، حيث قالوا بنفي التمييز بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وعرف هؤلاء باليعاقبة، وكان رأس المذهب في الإسكندرية، ومن ثم تبنته الكنيسة القبطية فيما بعد، وكذا كنائس الشام، في حين عرف القائلون بالطبيعتين بالملكانية، الذين كفروا ولعنوا ديسقورس، ومن يقول بمقالته ونفوه إلى فلسطين<sup>(١)</sup>.

وترتب عن هذا الانشقاق الذي تبادل فيه الطرفان أحكام الحرمان والتكفير رداً عنيفة طالبت الاستقرار السياسي والاجتماعي والحياد الديني واستمر الصراع على أشده بينهما، ولم تتخلص الكنيسة القبطية من أغلال أنصار مجمع خلقدونية إلا بعد دخول الإسلام إلى مصر. حيث إن رأس الكنيسة الأسقف "بنيامين" ظلّ مختفياً طوال ثلاثين سنة، وجيء بأخيه فوضع على منصة أوقدت تحتها المشاعل، وسلطت نارها على بدنه، فأخذ يحترق حتى سال دمه من جانبيه على الأرض، ولما لم يتزحزح عن عقيدته خلعت أسنانه، ثم قاده الجلادون إلى الشاطئ وعرضوا عليه أن يترك دينه ويخضع لقرارات المجمع، فأبى فرموه في البحر<sup>(٢)</sup>.

وسرى الأمر نفسه على الكنائس السورية، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرون إنسيابية الفتح الإسلامي تعود في بعض منها إلى أثر هذا الصراع الدامي بين الكنائس الرسمية والمنشقة عنها. وهكذا مضت القرون الأربعة الأولى بفصل وحرمان وارتداد طوائف عريضة كالأريوسية والنسطورية

(١) أبو زهرة: نفسه ص ٢١٢ / فلسفة الفكر الديني ج٢ ص ٢٧٥ / أصداء الزمن ص ١٢٥.

(٢) محمد الغزالي: نفسه ص ٩٧.

والأوتوخية اليعقوبية<sup>(١)</sup>.

وكذلك استمرت سنّة المجامع الخامس والسادس في إعلان أحكام الحرمان والخروج من حظيرة النصرانية لطوائف عديدة كالمونوثيلية سنة (٦٨١م)، والطوائف التي لبست أو استعادت الأوتوخية. أما أهم مسألة شغلت بها الكنائس في القرن الثامن الميلادي، فهي مسألة عبادة الإيقونات والصور المقدّسة، حيث انقسمت إلى حزينين متناحرين عرف أحدهما باللايقونيين الذين عقدوا مجمعا (٧٥٤م) واعتبروا عبادة الصور كفرا وشركا، وعضدوا مجمعهم بقرار من الإمبراطور "ليون الثالث" سنة (٧٢٥م)، والإمبراطور "قسطنطين الخامس" سنة (٧٣٠م) بمنع عبادة الصور وتحطيم الإيقونات<sup>(٢)</sup>. ولكن حزب الإيقونيين ربح المعركة من جديد بعد ثلاثين سنة من الاضطهاد والنفي ومنع عبادة الصور والإيقونات في المجمع المسكوني السابع (٧٨٧م) حيث استرجعت الصور والإيقونات مكانتها في تاريخ الكنيسة<sup>(٣)</sup>.

#### هـ- المجمع الثامن (٨٦٩م):

وهو المجمع الذي وقع فيه الانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب الخلاف في عقيدة الروح القدس ثالث الأقانيم، وهو منبثق من الأب فقط كما هو رأي الأرثوذكس؟ أم من الأب والابن معا كما يقول الكاثوليك؟. وتبعاً لهذا الاختلاف لعن كل فريق الآخر، واعتبر أحدهما الآخر مطروداً من حظيرة النصرانية<sup>(٤)</sup>، وبهذا الانشقاق انتهى عهد المجامع المسكونية

(١) الأوتوخية: أو المونوفيزية القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، بدأت سنة ٤٤٤م مع الأسقف أوتاخي بيزنطة حيث عقد أتباعه المجمع الرابع الذي تسميه روما مجمع اللصوص الذي نسخه مجمع خلقدونية الرسمي الرابع. انظر: الهرطقة في المسيحية، ص ٩٤ / فلسفة الفكر الديني ج ٢ ص ٣١٦ / رمسيس عوض: الهرطقة في الغرب، ط ١، القاهرة، دارسينا، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٧، ص ٨٧.

(٢) العريني السيد الباز: تاريخ الدولة البيزنطية، ط ١، بيروت، دار النهضة العربية، ص ١٧٨.

(٣) عبد المجيد الشرفي: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦، ص ١٠٦.

(٤) أبو زهرة: نفسه ص ٢١٨.

الشاملة وانفصلت الكنيسة وتباعدا، ووصل الأمر إلى تبادل قرارات الحرمان في بعض الأمور الفقهية مثل حلق اللحية وارتداء القميص والخاتم للرهبان واستعمال الفطير في العشاء الرباني بدل الخبز، فقد أقرته الكنيسة الغربية ولم تعترف به الشرقية، واستمر الجدل متصاعدا بين الطائفتين الكبيرتين إلى أن حصل الانشقاق التام يوم ١٦ تموز ١٠٥٤م<sup>(١)</sup>.

نتج عن هذا الانشقاق والحرمان المتبادل عداوة مريرة تجلّت أيام الحروب الصليبية حيث سلّط الكاثوليك قوتهم في إخضاع الأرثوذكس والمسلمين على السواء، فعندما دخلوا بيت المقدس: "حرمّ فيها المذهب الأرثوذكسي الشرقي، وفرّ البطريرق اليوناني إلى قبرص، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية، والمطران الإيطالي والحكم البابوي"<sup>(٢)</sup>.

بل إن هذا الاستخفاف بعقائد الأرثوذكس امتدّ إلى معابدهم المقدّسة، فعندما دخل الصليبيون القسطنطينية دمّروا ما فيها، ولم يراعوا حرمة علماني أو كهنوتي، كما روى ابن الأثير (٦٣٠هـ) في أحداث سنة (٦٠٠هـ) حيث قال: "فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئا، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى بأيديهم الإنجيل المحرّف والصليب يتوسّلون بها إلى الفرنج ليقبوا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة"<sup>(٣)</sup>. وهذه عينة بسيطة لما آلت إليه آثار قرارات الحرمان والتكفير الجماعي في أوروبا من حروب دينية دموية استمرت مددا طويلة، واصطلت أوروبا بنازها كما هو الحال في أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة.

(١) عادل زيتون: العلاقات الكنسية والسياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ص ٣٤٢.

(٢) قصة الحضارة ج ١٦ ص ٢٦، ج ١٤ ص ٣٩٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٦٤.

## الفرع الثاني

### المظاهر التكفيرية في النصرانية في عصور الإيمان

لا يمكن تخيل تاريخ النصرانية في أوج عظمتها أي فيما اصطلح عليه عصور الإيمان التي تماهت مع العصور الوسيطة المظلمة الممتدة من سقوط روما (٤٢٣م) إلى بدايات عصر النهضة دون تذكر محاكم التفتيش الكنسية، والتي قتلت آلاف الأفراد وعشرات الطوائف والمذاهب المهرطقة، وكذا ملايين المخالفين للمعتقد المسيحي من مسلمين ويهود في أسبانيا، وقد مثلت هذه المحاكم التطبيق الحرفي لوصايا منظري مبدأي الكبح العام والنقاء الإيماني.

فمع مجمع اللاتران الرابع (١٢١٥م) قرّر البابا أنونست (١١٩٨-١٢١٦م) تأسيس محاكم التفتيش لتتبع المهرطقين، والحكم عليهم بالموت حرقاً لخروجهم من دين النصرانية<sup>(١)</sup>، وأوكلت مهمات التفتيش إلى أشد القساوسة تعصباً من رهبان الفرنسيسكان والدومينيكان<sup>(٢)</sup>.

يعتبر بعض المؤرخين محاكم التفتيش استمراراً للحروب الصليبية في الدائرة الداخلية لأوروبا، حيث تناولت قراراتها جماعات نصرانية عديدة، منها طوائف عديدة توالد بعضها من الكنائس القديمة، وبعضها كان امتداداً للكنائس البائدة التي اندثرت بتحالف قرارات المجامع الرسمية مع السلط الزمنية المتعاقبة، ومنها الموحدون والرشديون والعلميون والموريسيكيون.

(١) بسام سخيطة: قصة محاكم التفتيش في العالم، ط١، دمشق، دارهيا، ٢٠٠٠، ص ١٤.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠، ج١ ص ٢٥٠ و٢٦٨.

## أولاً: الطوائف المكفرة من الكنيسة الكاثوليكية:

يمكن إجمال الطوائف الدينية التي نالتها نيران التكفير فيما يأتي:

### أ – الكاثاريون:

من أشهر الفرق التي أبيت بتلك الأساليب القاسية طائفة الكاثاريين أو التطهيريين، وهي طائفة متأثرة بالتعاليم المانوية التي تدين بازدواجية الخير والشر، وشاعت النحلة في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا<sup>(١)</sup>، وهزّت الكنيسة الرسمية هزّاً عنيفاً بسبب سلوكات باباواتها التي قلبت ظهر المجنّ للمنقول من زهد وتقشف المسيح عليه السلام.

قوبلت هذه الطائفة بكل أنواع الاستئصال قتلا وحرقا من قبل السلطات الزمنية التي استظهرت بقرار للبابا "نقولا الثالث" سنة (١٢٨٠م)، وهو مرسوم كنسي تكفيري جاء فيه: "نلعن بهذا جميع الضالين ونصبّ عليهم اللعنة – الكاثاري والبنوايين – فإذا أدانتهم الكنيسة وجب تسليمهم إلى القاضي الزمني لمعاقبتهم وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله، وأراد أن يكفر عن ذنبه، وجب سجنه مدى الحياة، وكلّ من يأوي الضالين، أو يحميهم، أو يساعدهم يحرم من الدين، وإذا بقي إنسان محروم عاما كاملا ويوما حرم من حماية القانون. وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم طردوا من حظيرة الدين فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضالين، وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم، وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان، ويظلّ كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه، فلا يغفر ذنبه حتى يخرج بيديه جثث المحرومين ويطرحها في العراء. ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا مسائل الدين

(١) الهرطقة في المسيحية ص ١١٥/الهرطقة في الغرب، ص ١٣٩/قصة الحضارة، ج ١٦ ص ٨٠.

الكاثوليكي. ومن يفعل هذا يحرم من الدين، وعلى كل من يعرف أحدا من الضالين، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت أن يبلغ ذلك إلى من يفضي إليه باعترافه أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين، والضالون وكل من يأوونهم، أو يؤيدونهم، وكذلك أبنائهم حتى الجيل الثاني، هؤلاء لا يسمح لهم بتولي المناصب الكنسية، وها نحن أولا نحرّمهم جميعهم وأمثالهم إلى أبد الدهر"<sup>(١)</sup>. هذا المرسوم الخطير في الفقه الكنسي طبق بحذافيره طوال القرون التالية<sup>(٢)</sup>.

واستمرت العذابات من ضغط الكنيسة ضدّ المارقين في نظرها، ولكن هذه الأحكام القاسية لم تردع الطوائف المنشقة، والتي تسميها الكنيسة بالملحدة والضالة، لأن فشل الحروب الصليبية التي ألهب أوارها باسم الله، واحتكاك الصليبيين بالثقافة الإسلامية، جعل موجة النقد والشك تتصاعد في الأوساط المسيحية حول قضايا الصور، ومعجزات القساوسة، وصكوك الغفران، وحول عقيدة تحوّل الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه، وكذا قدرة العشاء الرباني على إخراج الشياطين، وأقسى من ذلك التشكيك في عصمة الباباوات، وهو ما ولدّ عشرات الطوائف المرتدة في نظر الكنيسة. كان القضاء على الكاثاريين كلف أوروبا الكثير، إذ إن حربا صليبية داخلية اشتعلت، وتعهّد البابا بغفران الذنوب للمشاركين، وحرّم أراضي المنشقين، فمدينة "بيزير" في جنوب فرنسا دمّرت عن آخرها، وقتل فيها

(١) قصة الحضارة، ج١٦ ص٩٨.

(٢) مثل قانون فرديريك الثاني إمبرطور ألمانيا (١٢٢٠-١٢٣٩) الذي قضى بحرق الضالين أحياء ومصادرة أملاكهم وحرق بيوتهم وعدم إعادة بنائها، وكذلك الأمر في فرنسا مع لويس التاسع. انظر: قصة الحضارة ج١٦ ص٩٤.



عشرون ألفاً من الرجال والنساء والأطفال، ولما سئل مندوب البابا مرشد الحملة العسكرية: هل يؤمن الكاثوليك على حياتهم؟ قال: "اقتلوهم جميعاً، فالله يعلم من هم أنصاره"<sup>(١)</sup>.

وهو ما يذكرنا بمقالات التكفيريين الممارسين للتفجيرات الجماعية في بلاد الإسلام اليوم عندما يسألون عن الأبرياء الضحايا فيجيبون بأنهم يبعثون على نياتهم.

### ب - جماعة القديس يوحنا:

من الجماعات الطليعية التي افتتح بها تاريخ محاكم التفتيش جماعة "القس يوحنا" في ألمانيا، الذين أنكروا عقائد المطهر والغفران والعشاء الرباني، ونعوا على عزوية القساوسة. فأحرق ثمانون منهم بقرار كنسي في يوم واحد سنة (١٢١٢م)<sup>(٢)</sup> حتى إن المحققين الدومنيك صار يطلق عليهم تدرًا "كلاب الله"، أو الصيادون لهوسهم بتتبع عقائد وآراء الناس. وبلغ الأمر بأحدهم وهو الراهب "روبرت الدومينيكي" أن أرسل إلى المحرقة في يوم واحد مائة وثمانين شخصاً بتهمة التجديف، وكان ذلك سنة (١٢٣٩م)<sup>(٣)</sup>. ويصعب على الإنسان أن يتتبع حالات الإحراق الفردي والجماعي ومخلفات الحروب الدينية في أوروبا بسبب القسوة المتناهية التي اعتمدها الكنيسة. قسوة ظاهرها الرغبة في نقاء العقيدة، وهي رغبة قتل منها آلاف الأبرياء ولم تنج منها أوروبا إلا في عصور الأنوار والنهضة.

### ج - الهوسيون:

أتباع القس "جون هس" زعيم كنيسة بوهيميا (١٣٦٩ - ١٤١٥م). والذي تأثر

(١) الهرطقة في المسيحية ص ١٢٧.

(٢) قصة الحضارة ج ١٦ ص ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه ج ١٦ ص ٩٨.

بدعوات الإصلاحية "ويكلف" (١٣٨٤م)، وقامت دعوته على إنكار العشاء الرباني<sup>(١)</sup> ومعارضة بيع صكوك الغفران، وانتقاد البابا الذي سماه نابش الأموال. كما هاجم القساوسة المتاجرين بالدّين في أخذهم الأجرة على التعميد، ودعا إلى الزهد وإلى مرجعية الإنجيل وحده، وعصيان البابا إذا خالفت أوامره وأوامر المسيح، لكن قدر الله ساقه إلى المحاكمة بعد قرارات الحرمان ضدهً وضدّ أتباعه وانتهى أمره إلى إحراقه حيا في ٣٠ ماي ١٤١٥م<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: الموحدون:

أطبقت أوروبا في العصور الوسطى على رفع لواء الكاثوليكية تحت هيمنة الكرسي الرسولي في روما، وفي أتون التبشير بالنصرانية تمّ القضاء على كل المذاهب المخالفة والنحل المهترقة. إلا أن الصوت التوحيدى الذي أوتته الأريوسية قضي عليه بعنف في داخل أسبانيا القوطية. ولكنه تمظهر من جديد في أطروحات فردية وجماعية رافضة للأسرار الكنسية ولخرافة التثليث وللإفخارستية وعصمة البابا وصكوك الغفران. ففي إيطاليا برزت الطائفة الصوصنية التي أنكرت ألوهية المسيح<sup>(٣)</sup> ولكن أتباعها طوردوا واستؤصلوا تحت حراب ونيران محاكم التفتيش، ففرّوا إلى سويسرا فلاقوا

(١) قررالمجمع الثاني عشر الذي يعرف بالمجمع اللاتيراني الرابع سنة ١٢١٥ اعتبار العشاء الرباني وتحول الخمر والخبز إلى دم وجسد المسيح عقيدة رسمية، وقرر أيضا محاربة الألبجسيني، ويعتبر أهم مجمع مسكوني بعد مجمع نيقية. انظر: الهرطقة في الغرب ص٦٥.

(٢) الهرطقة في المسيحية، ص١٧٧/ قصة الحضارة ج٢٣ ص٤-١١ / أبو زهرة: النصرانية ص٢٣٩.

(٣) هاشم صالح:مدخل إلى التنوير الأوربي ص ١٨٣ / توفيق الطويل نفسه ص١١٣. وقد أسسها فواستو باجلو صوزيني (١٥٣٩-١٦٠٤) الذي استقر في بولندا عام ١٥٦٢، تقول الطائفة بالوحدانية ( الله أقنوم واحد) وتكفر ألوهية المسيح، تأثر بأرائها الفيلسوف يعقوب أرمينوس (١٥٦٠-١٦٠٩) في إنجلترا، وبعد نفي أتباعه وهروبهم إلى هولندا سيطروا على قسم اللاهوت بجامعة ليدن ولاحق الملك جيمس الأول وجودهم في هولندا. انظر: رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب، ط١، القاهرة دار سينما، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٧ ص٧٠.

نفس الاضطهاد من كالفن الإصلاحى. وتحت تأثير الروح الصوصيني أعلن كاستيلون السافوي مبدأ التسامح في رسالة شهّر فيها بتعصّب كالفن وحقده<sup>(١)</sup>، وندّد بموقفه من إحراق سرفنيوس الذي أدين بالردة وتم إحراقه لتشكيكه في مسألة التثليث، حيث أعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطهاد كان لعنة<sup>(٢)</sup>.

وإضافة إلى "سوسيني فاوستو" المتأثر بعمّه "لاليوس سوسيني" (١٥٢٥-١٥٥٦م) قام رجل اللاهوت "بول بست" سنة (١٦٤٥م) بمجاعة هذا المذهب بإنكار التثليث، والقول بأن الابن أدنى مرتبة من الأب، وباستحالة اجتماع اللاهوت والناسوت، وكان هذا انتصاراً لأراء أريوس التوحيدية القديمة. وقد شكّل البرلمان الإنجليزي لجنة للتحقيق سنة (١٦٤٦م) انتهت بإدانته وسجنه وحرق كتبه<sup>(٣)</sup>.

وعلى غرار الصوصينة قام "جون بيدل" بتأسيس المذهب اليونيتاري في إنجلترا، وهو مذهب قائم على إنكار التثليث والقول بالتوحيد، وإنكار ألوهية روح القدس. ونتيجة لقانون (١٦٤٨م)، اتهم بالتجديف وسجن سنوات عديدة، ثم نفي على عهد الثائر كروميل<sup>(٤)</sup>.

ويمكن أيضاً ذكر طائفة اللامعمدانيين التي أنكر بعضها ألوهية المسيح، فلم يعتبروه إلا إنساناً، إلا أنه أشدّ الناس ورعاً، وقد كفر عن خطايا

(١) الغزالي: التعصب والتسامح ص ٩١.

(٢) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام (القرنان السادس عشر والسابع عشر، تأليف رولان موسنييه)، ط٢، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٧. ج٤ ص ١٠٣.

(٣) والكتاب الذي تعرّض للحرق لتشكيكه في الثالوث واتهام مجمع نيقية بالهرطقة هو كتاب: كشف الأسرار. انظر: رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص ٨٠-٨١.

(٤) نفسه ص ٨١-٩٢.

البشر ليس بصلبه، ولكنه باعتباره قدوة للآخرين<sup>(١)</sup>.

ولم يكن الأمر مقصوراً على إيطاليا وفرنسا، بل إنَّ إنجلترا التي تعتبر رائدة في دعوات التسامح حاول فيها المحافظون البروتستانت استصدار قرار من البرلمان بإعدام كل من يشير إلى رأي يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسيد سنة (١٦٤٨م). وفي سنة (١٦٨٨م)، أصدر البرلمان الإنجليزي قانون الحقوق الذي ينصّ على كون البروتستانتية الدين الرسمي للدولة، ويحرّم على الكاثوليك وغيرهم من مخالفيهم الموحّدين حقّ العبادة، أو التعبير، أو الاجتماع<sup>(٢)</sup>.

لا يمكننا أن نغفل في حديثنا عن حركات التوحيديين المدانة من الكنيسة مسألة تسرّب تصوّرات الإسلام، وترجمة معاني القرآن إلى اللاتينية وإلى الفكر الأوروبي الوسيط.

بدأ الأمر عملاً معرفياً مضاداً للأطروحات العقديّة الإسلاميّة كما قال بطرس الجليل (١٠٩٢-١١٥٦م)<sup>(٣)</sup>: "يجب أن نقاوم الإسلام لا في ساحة الحرب، بل في ساحة الثقافة... ولإبطال العقيدة الإسلاميّة يجب التعرف عليها، وأنه سواء وصفنا الضلال المحمدي بالنعته المشين -بدعة-، أو بالوصف الكريه- وثيئة- فإنه لا بد من العمل ضدّه، لا بد من الكتابة ضدّه".

لكن ترجمة معاني القرآن التي بدأت وطبعت ابتداء من سنة (١٥٤٣م) للغة اللاتينية وتوالت إلى اللغات المحليّة، سرعان ما تركت آثارها في رواد النزعة الإنسانيّة الذين ناصبوا الكنيسة العداء سرّاً وجهرًا، ووجدوا في الثقافة

(١) قصة الحضارة ج٢٤ ص٩٧.

(٢) محمد الغزالي: التعصب والتسامح ص٩٨.

(٣) نجيب العقيلي: المستشرقون، ج١ ص١١٢.

الإسلامية ما يسند مقولاتهم، حتى إن "بيكوديو لا ميراندو"<sup>(١)</sup> قال في كتابه " في الكرامة الإنسانية": "لقد قرأت في كتب العرب أنه ليس ثمة في الكون شيء أكثر روعة من الإنسان"<sup>(٢)</sup>.

وهو الأمر الذي فتح النافذة على دخول الآثار الناقدة للرؤى المسيحية في العقيدة، وخاصة ما كتبه العلماء الأندلسيون، مما ساعد على بروز الأطروحات التوحيدية المناهضة للكتلة في العالم النصراني، والتي أدينت بكل قسوة وحكم على روادها وأتباعها بالردة والمهرطقة والضلال.

### ثالثاً: نقاد الكتاب المقدس:

تناولت أحكام التكفير والحرمان الكثير ممن تعرّضوا لمسألة إطلاقية وصحة الكتاب المقدس، ومع أن المسألة بعيدة الجذور زمنياً بين الطوائف النصرانية، حيث ظلّ الخلاف قائماً حول صحة العديد من الأناجيل التي تجاوزت العشرات، إلا أن مجمع نيقية الشهير استبعد الكثير منها، وأبقى على الأربعة المعروفة، فكان قرار الحرمان والتكفير ينال كل متعبد بغير هذه الأناجيل مثل إنجيل برنابا.

لكن الأمر لم يحسم بالقرارات، فالخلاف ظلّ قائماً بين الكنائس الشرقية والغربية في الاعتداد ببعض أسفار العهد القديم، ثم جاءت البروتستانتية أيضاً لتعيد الجدل حول الاعتداد ببعض الأسفار والرسائل. وقد سبق لوثر كلّ هذا النقاش عندما ترجم الإنجيل إلى الألمانية بدل اللاتينية، ومهد للفلسفة والنقاد طريقهم لنقد الكتاب المقدس، من حيث توالي الترجمات إلى بقية اللغات، مما جعل الآسار الكنسية المكبلة للعقل

(١) معجم طرايبشي ص ٢٢٣/ الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج ١ ص ٣٦٨.

(٢) محمد عابد الجابري: في نقد الحاجة إلى الإصلاح، ط ١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥، ص ٦٢ - ٦٤.

الأوروبي في العصر المدرسي تتفكك واحدة واحدة، مع عدم إغفال دور الطباعة في تسريع وتيرة تبادل الأفكار الناقدة للوضع الأوروبي العام. أما المصلح الإيطالي جيرودانوبرونو (١٥٤٨-١٦٠٠م)<sup>(١)</sup> فقد انتقد القضايا العلمية التي تبنتها الكنيسة وقرّستها، ولما تبنتى برونو نظرية كوبرنيكس (١٤٧٣-١٥٤٣م)، وقال بلا نهائية العالم وأزلية المادة، وأنكر عذرية مريم، اتّهمته الكنيسة بالتجديف لطعنه في الإنجيل وقوله بوحدة الوجود، فحكمت عليه محكمة التفتيش بقطع لسانه، ثم حرقه حيا لأنه تفوّه بكلام فيه تجديف وزندقة<sup>(٢)</sup>.

ونجد أيضا أحد رواد المذهب الإنساني في أوروبا وهو المصلح إيراسموس (١٤٦٩-١٥٣٦م)<sup>(٣)</sup> الذي هاجم وضعية الكنسية وانتقد رجال الدين اتهمهم بتهويد المسيحية عن طريق الزجر والتخويف والتشاؤم، وهو ما اعتبره مناقضا لرسالة المسيح، ولذلك قام بتحقيق الإنجيل من جديد ويسرّ قراءته لكل الناس. وشكّل كتابه "ثناء على الجنون" ثورة وصدمة في الأوساط البابوية لما حمله من نقد لاذع لرجال الدين المتزمتين، ولأجل هذا حرّمته الكنيسة ووضعت على قائمة الكتب المحظورة، واتّهمت صاحبه بالتجديف، وأحرق أتباعه في أسبانيا، وأعدم المترجم الفرنسي لكتابه سنة (١٥٣٦م)، و تحول الباقيون من أتباعه إلى البروتستانتية<sup>(٤)</sup>.

لم تنته مسألة التكفير والحكم بالتجديف في حق نقاد الكتب المقدسة، ولكن استمر اشتعالها في عصر النهضة والأنوار حتى الأيام الأخيرة،

(١) معجم طرايبشي ص ١٧٤ / الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج ١ ص ٢٨٩.

(٢) هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ١٢٧ / رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص ٤٧ - ٤٩ / الحفني: موسوعة الفلسفة ج ١ ص ٢٨٩ / يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٤.

(٣) عبدالرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة ج ١ ص ٩٧ / قصة الحضارة ج ٢٣ ص ١٨٠.

(٤) مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ١١٢ / قصة الحضارة ج ٢٣ ص ١٨٦.

ويكفي التذكير بما حصل للأب "ألفريد لوازي" الذي كان زعيماً لتيار التأويل الحديث للكتابات المقدّسة، ممّا حدا بالبابا "بيوس" إلى تكفيره وحرمانه وفصله من الكنيسة سنة (١٩٠٨م)<sup>(١)</sup>. ولولا قوانين العلمانية الحديثة لكان مصيره الإحراق كسابقه.

#### رابعاً: الرشديون:

اعتبرت الكنيسة العلوم الوافدة من العرب علوماً مدخولة لأن مصدرها الكفار، أي المسلمين - ولأجل هذا كانت الخصومة شديدة مع فلسفة ابن رشد (٥٩٥هـ) الأرسطية التي تسلّلت إلى أوروبا من الأندلس. فمُنذ القرن الثالث عشر والفلسفة الرشدية تصارع الكتلّة في فرنسا وإيطاليا وانتشرت انتشاراً مهولاً أقلق السلطات البابوية، ودفعتها إلى السعي للرد العلمي والقضائي على هذه الفلسفة الوثنية كما تراها.

اعتبرت القضايا الرشدية محرّمة التداول بقرارات متتالية من الكنيسة الرسولية بالفاتيكان، وكان مدار النزاع حول القول بالحقيقتين الفلسفية والدينية. وأزلية المادة وعدم خلود الأرواح وهو ما يؤدي إلى إنكار البعث. وكذا القول بأن العالم تسيّره القوانين بعيداً عن رعاية الله، ويتبع هذا إنكار المعجزات.

أما الردود العلمية فنمّت من قبل "ألبرت الكبير" (١٢٠٦-١٢٨٠م)<sup>(٢)</sup> الذي كلّفه البابا الإسكندر الرابع (١٢٥٢م) بالردّ على ابن رشد<sup>(٣)</sup>، فكتب رسالته: "في وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد". ثمّ تلاه توما الأكويني (١٢٢٤-١٢٧٤م) في كتبه "خلاصة المذهب الكاثوليكي ضد الوثنيين"

(١) شوقي أبو خليل: الحوار دائماً ص ٩٠ /مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ١٢٤.

(٢) معجم طرابيشي ص ٨٦/الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج ١ ص ١٨٠.

(٣) زينب الخضيرى: أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ط ١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٧، ص ٦٩.

و"خلاصة اللاهوت". وهو يمثل قمة المناهضة العلمية في التصديّ لفلسفة ابن رشد والمشائين. وهو ما يدل على الرجفة العنيفة والقوية التي أصابت الأوساط الكنسية، نتيجة النقد الممارس لمسلمات الفلسفة القروسطية الموروثة عن الآباء المؤسسين<sup>(١)</sup>.

أما الرد القانوني فتمثّل في القرارات الصادرة بالحرمان، والحكم بالتكفير على المشتغلين بفلسفة ابن رشد أو المروجين لكتبه. إضافة إلى القرارات الفاتيكانية العليا بتحريم النظر في الرشدية، فإن دكاترة جامعة السوربون المحافظين ندبوا أنفسهم للتصديّ لفلسفة ابن رشد مظاهرين لدواوين التحقيق في عملها<sup>(٢)</sup>. وأصدر أسقف باريس "أتين مانبيه" بيانا سنة (١٢٧٧م) بتكفير الرشديين اللاتينيين في مائتين وثلاث عشرة مسألة، وقرّر رسميا أنها تسم قائلها بالإلحاد، ولأجل هذا أدين العالم سيجير (١٢٣٥-١٢٨١م)<sup>(٣)</sup> من طرف محكمة التفتيش بالسجن المؤبد ثم اغتيل في سجنه<sup>(٤)</sup>.

وكذلك كان الأمر مع الفيلسوف "بومبوناتي" (١٤٦٢-١٥٢٥م)<sup>(٥)</sup> الذي ألف كتاب "خلود النفس" منكرًا فيه الخلود، كما قال بالحقيقتين والحرية الإنسانية. ممّا دعا محكمة التفتيش إلى إحراق كتابه، ولم ينج هو إلا بحماية أحد الكرادلة<sup>(٦)</sup>.

وتأيّد ذلك بقرار أصدره مجمع اللاتران سنة (١٥٠٢م) بلعن كل من ينظر

(١) دي لاسي أوليري: الفكر العربي ومركزه في التاريخ (ت إسماعيل بيطار) ط٦، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٢، ص ٢٤٢.

(٢) عبد الرزاق قسوم: مفهوم الزمان في فلسفة أبي الوليد بن رشد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥، ص ١٨٥-١٨٧.

(٣) الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج١ ص ٧٦٢/معجم طرابيشي ص ٣٨١.

(٤) قصة الحضارة ج ١٧ ص ١٠٩.

(٥) الحفني: موسوعة الفلسفة والفلاسفة ج١ ص ٣٤٧/معجم طرابيشي ص ١٢٠.

(٦) محمد عبده: الإسلام والنصرانية، ص ٣٠/يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٤.



في فلسفة ابن رشد. وطفق الرهبان الدومنيكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئاً من الصناعة والعبادة<sup>(١)</sup>. حتى إنهم نالوا من الأموات الذين نجوا بقدر الله من هذه الأحكام القاسية، إذ إنهم حاكموا جثة المعلم "بطرس ديانو" وأحرقوا عظامه بعد موته في البندقية، تبعاً للحكم التراجعي بردته وكفره<sup>(٢)</sup>.

وهكذا اشتدت الحملة على الرشديين الذين كفّروا، وأبعدوا وأدينوا بتهم الردة والإلحاد، ولم يتمكن الرشديون من العودة إلى أقسام الفلسفة واللاهوت إلا مع سيطرة فلسفة الأنوار التي طوّحت بمواريث العصور الوسطى وراء ظهرها لتتجى أوروبا من أغلال دواوين التحقيق، ومحاكم التفتيش، وأحكام التكفير.

#### خامساً: العلميون:

طالت أحكام التكفير مجموعة كبيرة من رواد النهضة العلميين، والمتتبع للسجلات القضائية للكنيسة يذهل من غرابة الأحكام القضائية الصادرة بحق رواد البحث العلمي في أوروبا. حيث إنه لا مبالغة في الاقتصار على وصف أواخر عصر الإيمان وبدايات النهضة الأوروبية بأنه تاريخ الصراع بين الدين والعلم، حيث كانت العلمية مناهضة للخرافة والتوسّع في المعاجز والإيمان بمواريث القرون الوسطى.

وفي هذا الصدد حاصرت الكنيسة كل تطلّع علمي، وحرّمت العديد من الكتب وأصدرت قرارات الحرمان ضدّ المطالعين للكتب التي لا تسمح بها. حيث كانت السلامة قائمة على ترك الفكر والتفكير والنقد، والأخذ

(١) محمد بيصار: في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، ط٣، بيروت، دارالكتاب اللبناني، ١٩٧٣، ص١٩٧.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص١٤ - ١٥.

بالتسليم لأن الجهالة أمّ التقوى<sup>(١)</sup>.

فمثلاً: "دي رومنيس" حكم عليه بالسجن لأنه قال إن قوس قزح ليست قوساً حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد، بل هي انعكاس ضوء الشمس على الماء، ومات في حبسه فأحرقت جثته، وكتبه معه<sup>(٢)</sup>.

وكذلك العالم الفلكي الكبير "غاليليو" (١٥٦٤-١٦٤٢) الذي برهن على كروية الأرض ومركزية الشمس، فصادرت الكنيسة كتابه "حركات الأجرام السماوية"، وجرت به أبحاثه إلى المحاكمة التي خيّرت بين الإعدام أو التراجع عن آرائه فانحنى أمام جبروت الكنيسة تاركاً كلمته الشهيرة: "ولكنها تدور"<sup>(٣)</sup>.

ولا غرابة في هذا إذا ذكرنا بأن الكنيسة كانت تتوجس من العلوم ذات الأصول اليونانية، أو الوافدة من العرب، فالرياضيات كانت تسمى فنّ الشيطان، والفلك شجرة السّحرة، والناظر فيها يؤول أمره حتماً إلى الهرطقة ومحادّة حقائق الإنجيل المحرف، ولهذا كانت المزاولة العلمية تنمو في الخفاء والمطبوعات تتداول سرا، والباحثون يفرّون من قمع إلى قمع خوفاً من سيف الكنيسة<sup>(٤)</sup>. وتبعاً لهذا انتشر تيار المشكّكين في العقيدة، ونما الإلحاد في المراكز العلمية. حتى كانوا يقولون: حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين<sup>(٥)</sup>.

(١) محمد عبده: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية ص٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٨.

(٣) انظر: جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة ص٤٣٢ / يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص٢١.

(٤) لم يبلغ المكتب الفاتيكانى الخاص بالمكتب الممنوعة (الضارة بالعقول والخطرة على العقيدة) إلا في سنة ١٩٦٥م، مثل كتب: بالزك، فلوبيير، فيكتورهيغو، زولا، جان بول سارتر، إلكسندر دوماس، وإن كان مجمع حراسة الإيمان في الفاتيكان-الذي كان يرأسه البابا الحالي بنديكت السادس عشر- يمارس بعضاً من مهام المكتب السابق.

(٥) هاشم صالح: مدخل إلى التوير الأوروبي ص١٢٧.

ولأجل هذا قابلت الكنيسة العلم الحديث بالتوجس والخيفة أحيانا، وأحيانا أخرى بالمحاصرة بأحكام الحرمان، ثم الضرب بيد من حديد قرارات دواوين التحقيق.

ولكن النتيجة التي هي أبعد من ذلك كله هي موت الكنيسة نفسها، فديكارت زعيم الفلسفة الحديثة، اعتبر عدوا للكنيسة، وحرمت كتبه سنة (١٦٦٢م)، وأصدر "لويس الرابع عشر" (١٦٣٨-١٧١٥م) قرارا يمنع تدريس فلسفته سنة (١٦٦٧م) بضغط من اليسوعيين<sup>(١)</sup>.

لقد ضيق على العلماء وحسرت المراكز العلمية بسلاطان دواوين التحقيق فنظمت مؤسسة خاصة للرقابة على المطبوعات في عهد البابا "بولس الثالث"، ففي سنة (١٥٤٢م) صدر مرسوم كنسي مؤكد للمعاني المشار إليها:

- ١- حين يكون الإيمان موضع شك، يجب ألا يكون هناك أي تأجيل، ولا بد من اتخاذ الإجراءات الصارمة بكل سرعة إذا قامت أي شبهة.
  - ٢- يجب ألا يكون هناك أي اعتبار لأي أمير أو حبر مهما علا منصبه.
  - ٣- الصرامة المتناهية أولى أن تستعمل مع أولئك الذين يحاولون الاحتماء بأي حاكم، ولا يعامل بالرفق إلا من اعترف اعترافا كاملا.
  - ٤- يجب ألا يحط إنسان من قدره بإبداء التسامح نحو المهرطقين<sup>(٢)</sup>.
- لم يكن غريبا ذلك الإجماع حول المواقف السلبية للكنيسة تجاه العلم<sup>(٣)</sup>،

(١) قصة الحضارة ج ١٧ ص ١٠٦.

(٢) قصة الحضارة ج ٢٧ ص ٢٤٠.

(٣) من المواقف الغربية أن مهندسا ألمانيا اكتشف مصباحا يعمل بآلية الزيت، فاعتبرته الكنيسة مهرطقا وقضت عليه بالحرمان وعلت الحكم بأن الله أراد الليل ظلاما والنهار ضياء، وأن محاولة إضاءة الليل هي تمرد على الإرادة الإلهية. انظر: عبد العظيم المطعني: الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة، ط ١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٧، ص ٧٢.

مواقف عجلت بدوران عجلة التاريخ الحديث دون الكنيسة التي انحسرت في حجورها.

يلخّص الفيلسوف برتراند راسل (١٨٧٢-١٩٥٠م)<sup>(١)</sup> الحصيّة السيئة للكنيسة في محاضرته: "لما لم أكن مسيحياً": "في عصر ما يسمى بعصر الإيمان، وفي الوقت الذي كان يؤمن الناس فيه إيماناً حقيقياً بالدين المسيحي في جميع تعاليمه وطقوسه، أنشئ ديوان التفتيش بتعدّياته، فأحرقت جثث ملايين من النساء التعيّسات كأمثلة للعيان، واستخدم باسم الدين كل أنواع القسوة ضد جميع صنوف الناس"<sup>(٢)</sup>. وهي حقيقة لا تنكرها الكنيسة نفسها، إذ تصدر الاعتذار تلو الآخر. فعلى نفسها جنت براقش الأوروبية.

#### سادساً: حركة الإصلاح الديني:

ارتفعت موجة التكفير الداخلي في المسيحية واكتمل أوجها في الانشقاق التاريخي الثالث، وهو خروج البروتستانتية من رحم الكاثوليكية، وقاد هذا الانشقاق الألماني "مارتن لوثر" الذي انتفض على السلطة المطلقة لبابا روما، فدعا إلى إصلاح الكنيسة، ورفع راية الاحتجاج على صكوك الغفران، واحتكار تفسير الإنجيل المحرف، فهاجم الجدران الثلاثة التي شيّدها البابوية حول أنفسهم، وهي:

التمييز بين رجال الإكليروس والعلمانيين، وتحريم زواج القساوسة. وحق البابا في تفسير الكتاب المقدس على هواه. ثم حقه المطلق في الدعوة لمجلس عام للكنيسة<sup>(٣)</sup>.

كان الرد البابوي قاسياً، فأعلن البابا "ليوالعاشر" سنة (١٥٢١م) ردة لوثر

(١) بدوي: موسوعة الفلسفة ج١ ص٥٧١/معجم طرابيشي ص٣١٧/موسوعة الحفني ج١ ص٦٤٧.

(٢) محمد البهي: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص١٣٦.

(٣) قصة الحضارة ج٢٤ ص٢٨/تاريخ الحضارات العام ج٤ ص٨٠.

وصدر الأمر بإحراق كتبه، وإذا رفض المجيء إلى روما، وسحب أقواله خلال ستين يوماً: " فإنه سوف يبتز من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطقياً، وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها، أو تسلّمه إلى روما" (١).

وردّ لوثر بالدعوة إلى طرد ممثلي البابا من ألمانيا، وإلى الامتناع عن دفع الإتاوات، وإلى تعطيل القوانين الكنسية، وترك صرخة مدوية ضدّ كرسي روما في ندائه:

"استمع أيها البابا، ولا أقول أقدّس الرجال، بل أكبرهم إثماً، ثق بأن الله ربّ السموات سوف يقوِّض عرشك قريباً، ويغرقه في هاوية الجحيم، يا سيدي المسيح أطلّ علينا من عليائك، ودع يوم قصاصك يشرق ويدمر عش الشيطان في روما" (٢).

انقسم العالم المسيحي الأوربي من جديد إلى تجمّع كاثوليكي وآخر بروتستانتي، وتبادل الطرفان تهم المروق والردة والتكفير، واشتعلت الحروب الدينية، وحصلت الانقلابات والثورات دعماً أو هدماً لإحدى الطائفتين، وعلقت أعواد المشانق، وسالت الدماء في المجازر الطائفية في هذا البلد أو ذاك. والذي يخلص إليه أن ميراث ما اصطُح عليه بعصور الإيمان النصرانية، ومحاكم التفتيش ودواوين التحقيق وعنف الكنيسة ضدّ المخالفين لها من الطوائف المنشقة، أو من الاتجاهات الموحّدة، أو الفلسفية والعلمية، دفع بحركة الإصلاح قدماً، تلك الحركة التي نهلت من الوافد الإسلامي من أسبانيا وصقلية والمشرق العربي إبان الحروب الصليبية، والتي دعت إلى فتح

(١) قصة الحضارة ج ٢٤ ص ٢٧ / بيوري: حرية الفكر ص ٦٨.

(٢) قصة الحضارة ج ٢٤ ص ٣٠.



الموارث الدينية لتقرأ بغير عيون الكنيسة الرسولية، وهو ما عجل بحروب دينية بين المحافظين والإصلاحيين، تلك الحروب التي غدتها آثار محاكم التفتيش التي كانت أغلب قراراتها تطبيقات لأحكام التكفير والحرمان بكل أنواعه، حيث صار التكفير جمعياً، ثم كانت المحارق والمجازر جماعية أيضاً، فالكل كان يقدم القرابين البشرية تطبيقاً لنصوص الكتاب المقدس المزعوم القاضية بعدم الرحمة والرفقة بالمرتدين والمهرطقين.

## الفرع الثالث

### الآثار التكفيرية للنصرانية في بداية النهضة الأوروبية

#### أولاً: التكفير الجماعي:

إن الحصيلة الرئيسية لموارث العصور الوسطى الأوروبية هي شيوع ثقافة التكفير والتبديع وتبادل تهمة المروق والحرمان بين مختلف الطوائف النصرانية، وآية ذلك هي الحروب الدينية التي استمرت مائتي عام كاملة صليت أوروبا بناورها واكتوت من حرها واحترقت بشررها. فالمستقراً للكتابات الدينية بين البروتستانت والكاثوليك يجدها طافحة بألفاظ التكفير والحرمان والهرطقة والحكم الدياني بدخول جهنم، حتى إن بعضهم سمى أدبيات تلك الفترة بالسعار اللاهوتي.

#### ويمكن التمثيل لذلك من طرف البروتستانت بما يلي:

– الراهب" توماس مونزر" الذي دعا إلى الحرب الاستتصالية ضدّ مخالفيه غير البروتستانت قائلًا: "إن الكفار لا حقّ لهم في العيش إلا بقدر ما تسمح به الصفوة"<sup>(١)</sup>.  
نحت هذه الثورة إلى العنف الشديد ضد النبلاء ورجال الدين المعارضين، ولهذا تصلّ منها لوثر لنبذها مبدأ التسامح مع الكفار (أي غير البروتستانت)<sup>(٢)</sup>.  
وتلاقت ظروف سياسية واجتماعية في ألمانيا ضدّ هذه الثورة الاجتماعية التي تسلّحت بسلاح الإصلاح الديني ضد أغلال الكنيسة الكاثوليكية.

(١) الهرطقة في المسيحية، ص ١٩١ / قصة الحضارة ج ٢٤ ص ٨٧.

(٢) جون لوك: رسالة في التسامح، ط ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٨. ص ١٤.

وعلى منوال تلك الحركة قامت حركة اللامعمدانيين<sup>(١)</sup> التي نادى بعدم ألوهية المسيح، ودعت إلى حياة الزهد والتقشف، ورفض الخدمة العسكرية أو امتهان العنف لفرض الآراء، والدعوة إلى إعادة التعميد بعد البلوغ، إلا أن هذه الطائفة جوبهت بقسوة، فاعتبرت حركة ردة، وصادق الملك "شارل الخامس" (١٥٠٠-١٥٥٨م) على مرسوم يقضي بإعدام كل اللامعمدانيين سنة (١٥٢٩م) فقتل الآلاف في سويسرا وألمانيا.

### وصف أحد المؤرخين الأحكام القاسية الصادرة عن دواوين التحقيق ضدّهم بقوله:

"عدّب البعض على المخلة وشدّت أطرافهم حتى انتزعت، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رمادا وهباء منثورا، وشوي لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً إرباً بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار، وشنق آخرون فوق الأشجار، أو قطعت رؤوسهم بالسيف، أو ألقى بهم في لجة الماء، ومات بعضهم جوعاً، أو هلكوا في غياهب السجون المظلمة... وظلّ الكثيرون منهم سنوات في غياهب السجون، وختمت على خدودهم أرقام تركت فيهم أخاديد"<sup>(٢)</sup>.

وعندما نجح أحدهم وهو "جون الليدي" في حكم مدينة "مونستر" بألمانيا، حوصرت هذه الأخيرة، حتى أفتت المجاعة الناس، وذلك سنة (١٥٣٥م)، ولما سلّم اللامعمدانيون أنفسهم وكانوا ثمانمائة رجل ثمّ دُبِحوا جميعاً، أما زعيمهم فقد ربط واثنان من أعوانه على سارية، فقد خمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار، وشدّت ألسنتهم حتى تدلت

(١) اللامعمدانيون: نحلة مسيحية تدعو إلى البساطة والزهد والتسامح وإشاعة الملكية، ومناهضة الإكليروس الرسمي ورفض الخدمة العسكرية، وتجديد العماد بعد البلوغ ليأخذ العقيدة المسيحية بعلمه واختياره. انظر: الهرطقة في المسيحية، ص ١٩٥/ قصة الحضارة ج ٢٤ ص ٩٦/ تاريخ الحضارات العام ج ٤ ص ٨٦

(٢) قصة الحضارة ج ٢٤ ص ١٠٠.



من أفواههم، وأخيرا طعنت قلوبهم بالخناجر"<sup>(١)</sup>.

**وحتى "مارتن لوثر" لم يسلم من ذلك، إذ كان موقفه الأول مناديا بالحوار والتسامح في داخل النصرانية لما هاجم البابا "ليو العاشر" حيث قال:**

" إن حرق الهراطقة مخالف الروح القدس، ويجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق". كما دعا إلى تخفيف عقوبة الردة من الإعدام إلى النفي، لأن إكراه الناس على العقيدة قسرا غير مفيد"<sup>(٢)</sup>.

لكنه في سنواته الأخيرة بدأ في قلب ظهر المجن للتسامح، فتراجع في موقفه من اليهود المنبوذين في أوروبا، ووصفهم بأنهم هم والبابويون (أي الكاثوليك) تعساء كفرة، وأن الطائفتين جوربان صنعا من قماش واحد، وأن اليهود أمة من أناس غلاظ كفرة خبثاء ممقوتين، ودعا إلى إشعال النار في مدارسهم ومعابدهم وإلى طردهم من البلاد كالكلاب المسعورة"<sup>(٣)</sup>.

وتساوقا مع هذه الدعوات المنتقصة من اليهود فقد تعرضوا لموجة سخط عارمة في أوروبا، فزيادة على ما وقع ضدهم من تهجير في أسبانيا وإكراه على الارتداد إلى النصرانية، فقد اعتبروا سببا للطاعون الأسود في القرن الرابع عشر الميلادي، وحملتهم الكنيسة وزر صلب المسيح بزعمهم، بل إن الكنيسة لم تكن تعتبر المسيح ولا أمه مريم عليهما السلام يهودا.

ففي مدينة تولوز كانت العادة أن يستدعى كبير الحاخامات في عيد الفصح ليصنع أمام الجميع انتقاما لما حدث للمسيح صبيحة الصلب، واستمرت عذاباتهم في أسبانيا والبرتغال بالحرق أحياء، وآخر يهودي أُحرق في

(١) الهرطقة في المسيحية، ص ١٩٧/ قصة الحضارة ج ٢٤ ص ١٠٧.

(٢) قصة الحضارة ج ٢٤ ص ١٤٠.

(٣) انظر عبد الودود شلبي: الإسلام وخرافة السيف ص ١١١-١١٦.

أسبانيا كان سنة (١٨٢٥م) فقط، أما في إيطاليا فكان بعض الباباوات يأمرون بوضعهم في براميل لها مسامير ثم تدحرج حتى تتقطع أشلاؤهم، وعندما تحلّ الكوارث الطبيعية أو تندر السلع، فإن الانتقام الأول كان ينصبّ على اليهود باعتبارهم أصحاب الربا<sup>(١)</sup>.

والمتصفح للحياة الاجتماعية في أوروبا يجد أن نصيب اليهود كان السكن فيما يعرف بـ "الجيو"، وحوّلهم نسج كُتاب الأدب قصصا مليئة بالكراهة والتمييز، ففي قطعة للشاعر "سببا" يهجو فيها جنس اليهود بأنه: "جنس محقر كرهه الرائحة، ومسوخ حسود ناشروا أمراض بلا شرف، مهمل بغيض خسيس قذر بخيل ملعون متكاسل"<sup>(٢)</sup>.

وكذلك فعل شكسبير في تصويره للشخصية اليهودية المرابية الجشعة في مسرحيته "تاجر البندقية"، وفي فرنسا وفي أعقاب اكتشاف خلية يهودية في اللوفر قام لويس ١٣ بقتل اليهودي "كونسينين" عام (١٦١٧م)، وقام الكاثوليك بإخراج جثة اليهودي "مورشيرا" من القبر وطعنوها وأكلوها على جسر نيف وأحرقوا العظام الباقية ورموها في نهر السين، في حين أحرقت زوجته علنا<sup>(٣)</sup>.

وعلى شاكلة التكفير الجمعي سار الإصلاح "كالفن" سيرة متشددة مع الممارسين للطقوس الكاثوليكية، مثل تمجيد التماثيل، أو الاعتزاز بإحدى المخلّفات المقدّسة، أو اتخاذ مسبحة، أو اعتبار عيد قديس يوما مقدّسا، وكان العقاب الموحد للهرطقة من الكاثوليك، أو السحر، أو المخلّين بالنظم الجديدة للبروتستانتية هو الإعدام.

(١) بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة ص ٢٢٩ - ٢٢٩.

(٢) قصة الحضارة ج ٢٦ ص ١٥٥-١٦١.

(٣) رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص ٣٢.

ففي عامي (١٥٤٢ و ١٥٦٤م)، أعدم ثمانية وخمسون شخصا، ولم يسمح في "جنيف" التي عرفت بمدينة الربّ بوجود غير البروتستانتيين. ولا ننسى ما فعله كالفن بطائفة اللامعمدانيين، وكذلك رسائله إلى أشياعه في فرنسا من الهوجنوت في مبادلة الكاثوليك نفس الحرب والبراءة الدينية باعتبارهم مرتدين عن النصرانية الحقّة. وقد صدرت أكثر من ثمانمئة نشرة سنة (١٦١٨م) ضدّ الكاثوليك.

وكانت المسرحيات البروتستانتية تسخر من البابا وتختم عادة بزجه في الجحيم، وشاعت مفردات كثيرة في هذا السعار اللاهوتي التكفيري مثل: الروث، النفاية، الأفاعي، الخنزير، البغيّ، القاتل، مستحضري الأرواح، السحرة... إلخ، وفي إحدى الصور المحفوظة في ألمانيا صورة البابا على شكل خنزيرة تلد رهبانا يسوعيين في صورة خنازير صغار<sup>(١)</sup>.

أما البروتستانت فقد جاء في إحدى نشراتهم الدعائية سنة (١٥٩٠م) ضد الكالفنيين: "إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الإيمان نقاتل عليها جنس الأفاعي الكلفينية الشيطاني، كان الجواب كلها بلا استثناء، ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين بل يهود ومسلمون معمدون".

وقالوا عن الكاثوليك: "إن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق النعمة الإلهية ومغفرة الخطايا والخلّاص، فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد في نار جهنم المشتعلة وكبريتها"<sup>(٢)</sup>.

وتساق هذا مع إعدامات متبادلة ومحاكمات جائرة وظلم متواصل نال الطوائف الصغيرة تصحيحية أو محافظة، فالكالفنييون قمعوا بشدة الموحدّين

(١) قصة الحضارة ج ٢٩ ص ١٨٩.

(٢) المصدر نفسه ج ٢٩ ص ١٩٠ - ١٩٢.

سنة (١٥٧٠م) وأعدموا شخصين نازعا في ألوهية المسيح<sup>(١)</sup>، وفرضوا تعاليمهم بالقوة في أماكن نفوذهم.

أما الكاثوليك فقد اعتبروا البروتستانت كفاراً تباح دماؤهم وأموالهم، واعتبروا هلاكهم من بديهيات اللاهوت، لأنهم مرتدون محرومون من الغفران. ويمكن التمثيل لآثار هذا التكفير الجماعي بما حدث في فرنسا، وهي البلد الذي شهد أعنف موجات الاضطهاد الديني والزمني ضد الموسومين بالارتداد من البروتستانت الذين أطلق عليهم محلياً "الهوجونوت".

كان الطلاق بين الفريقين بائناً، واستظهرت الكنيسة بالاستياد الملكي لأسرة "البوربون"، فتوالت القرارات المؤدية إلى استئصال شأفة البروتستانت المرتدين مقاطعة وتحريماً للزواج منهم<sup>(٢)</sup>، وإبطالا لعقودهم، ومنعهم من الدفن في مقابر الكاثوليك<sup>(٣)</sup>، ولهذا أرادت فرنسا تحقيق الوحدة الدينية تحت شعار: ملك واحد وقانون واحد وعقيدة واحدة.

وسجّل التاريخ أشنع مذبحه جماعية للبروتستانت، وهي تلك التي وقعت في عيد القديس "سان بارتيملو" في ١٤ أوت ١٥٧٢م، حيث ذبح أزيد من عشرين ألف بروتستانتي، وابتهج الكرسي الرسولي بذلك، وأصدر البابا أوسمة فيها صورة البابا "جوريجوري" وبجانبه ملك يضرب أعناق الملحدون وكتب عليها: "إعدام الملحدون"<sup>(٤)</sup>.

(١) نفسه ج ٢٩ ص ١٨٨.

(٢) مع العلم أن هذا الأمر مستمر حتى في العصر الحاضر فقد صدر قرار بابوي آخر في أيار ١٩٤٩ بتحريم زواج الكاثوليك من الأرثوذكسي والبروتستانتي. انظر: شلبي: أضواء على المسيحية ص ١٢٦.

(٣) لم يسمح مثلاً للبروتستانت بالدفن في مقابر المسيحيين حتى عام ١٨٣٠م في مالقة، حيث سمح الإسبان بدفن الإنجليز الذين قاتلوا الفرنسيين إلى جانبهم، وقبل ذلك فإن الحانوتيين كانوا ينتظرون جزر البحر حتى يدفن غير الكاثوليك، حتى اشتكى الصيادون من أن رفات هؤلاء يلحق النجاسة بأقدامهم. انظر: عادل بشتاوي: الأمة الأندلسية الشهيدة ص ٢٧٠.

(٤) انظر: قصة الاضطهاد الديني ص ٩٠-٩١/ الموسوعة العربية الميسرة ج ١ ص ٩٤٩.

كل هذا والمحاكم تستظهر في إعدام البروتستانت بالقانون السابق للملك "هنري الثاني" (١٥٤٧-١٥٥٩م) الذي أمر القضاة بأن يحكموا بالإعدام على كل البروتستانتين المتشبهين بعقيدتهم في يونيو (١٥٥٩م)، واتبع هذا القانون بمرسوم يقضي بهدم كل المباني التي تقام فيها اجتماعاتهم، فاضطرّ الكثيرون منهم إلى الفرار إلى خارج فرنسا<sup>(١)</sup>.

توالت المذابح المتبادلة، فأقفرت فرنسا وتراجع أسطولها، ودمّرت بيوتها حتى سميت هذه السنوات الجنونية بسنوات الدم، والتي أودت بحياة الملك "هنري الثالث" (١٥٥١-١٥٨٩م) الذي حاول الحدّ من الحروب الطائفية، ممّا كلفه صراعا مع العصبية الكاثوليكية، التي ذهبت به إلى حتفه نتيجة تعاطفه مع المنشقين البروتستانت.

ولما جاء خليفته "هنري الرابع" (١٥٥٣-١٦١٠)، أصدر مرسوم "نانت" التاريخي في ١٣ أبريل ١٥٩٨م، الذي أباح الممارسة الكاملة للديانة البروتستانتية.

ولكن المرسوم قوبل بالرفض، فنُدّد به البابا "كليمنت الثامن": "كألعن ما يمكن تصوّره، منحت به حرية الضمير للجميع، وهذا أسوء شيء في الوجود".

وأعلن الكتّاب الكاثوليك من جديد بأنه يحلّ خلع الملك الزنديق أو قتله. وكانت الفاجعة بقتل الملك المتسامح سنة (١٦١٠م) على يد متعصّب كاثوليكي بتأثير من اليسوعيين<sup>(٢)</sup>.

اشتعلت الحروب الدينية التي مزّقت فرنسا نتيجة براءة كل جهة من الأخرى الموسومة بالردة والهرطقة، وكانت أعنف حرب هي حرب الثلاثين عاما بين سنتي ١٦١٨ و١٦٤٨م.

(١) قصة الحضارة ج ٢٩ ص ١٧٥.

(٢) قصة الحضارة ج ٢٩ ص ٢٣٠.

وارتكبت الفظائع الغربية المزيّنة بأحكام التكفير الفردي والجماعي، حتى إن مدنا حرّمت كلها، كمدينة "لاروشيل"- في شمال فرنسا- ذات الأغلبية البروتستانتية التي حوصرت ثلاثة عشر شهرا، وأكل فيها الناس القلط من الجوع، ثم استسلمت لسيوف الكاثوليك في ٣٠ أكتوبر ١٦٢٨م<sup>(١)</sup>. ويسوق المؤرخون تاريخا قديما عما يسمى "حملات الهداية" لإعادة البروتستانت الهوجونوت إلى الكاثوليكية بالقوة، فقد صدر مرسوم سنة (١٦٧٩م) بنفي جميع البروتستانت ومصادرة أملاكهم، وإبطال زيجاتهم، والتعميد القسري لمن بلغ تسع سنوات، مع حملة فظيعة وتتبع دقيق للاجتماعات والمنشورات، بل إن قانونا وضع لمنع الهجرة، وقد عوقب من تسبّب في مساعدة الهوجونوت بالعمل الشاق في السفن مدى الحياة، وكان لفرق الخيالة النصيب الأوفر في هذه الأفعال القاسية فاضطر الآلاف من البروتستانت (٢٠٠ ألف) للفرار إلى هولندا وألمانيا<sup>(٢)</sup>.

### ثانياً: الحروب الدينية:

إن تصاعد الجدل اللاهوتي والأخلاقي بين الكاثوليك والبروتستانت والكالفينيين وغيرهم جرّ أوروبا وسرّتها الإمبراطورية الرومانية المقدسة<sup>(٣)</sup> إلى حرب دينية عمّقت الشقاق في داخل النسيج الاجتماعي الهش. وقد سبقت هذه الحرب بتصاعد نبرات الاحتجاج، وبروز صيحات التكفير من الطرفين، واستخدمت فيها ألوان من الحرب الدعائية والإعلامية، التي مثّلت فيها النشرات والمسرحيات والحكايات وسائل للتعريض بالآخر. لم يكن هذا السعار اللاهوتي لينتهي بسلام بين المذاهب المتصارعة،

(١) نفسه ج٢٩ ص٢٤٤.

(٢) قصة الحضارة ج٣١ ص١١١-١١٥.

(٣) تضم ألمانيا والنمسا وبوهيميا وأجزاء من سويسرا وفرنسا. انظر تاريخ الحضارات العام ج٤ ص١٤٢.

خاصة بعد أن صارت الحروب الصليبية داخلية، فاليسوعيون نادوا بحرب صليبية جديدة لاسترداد الأراضي الإصلاحية في ألمانيا. وهكذا انقسم العالم النصراني إلى حلفين رئيسيين، فالحلف الكاثوليكي ضمَّ إضافة إلى روما كلاً من أسبانيا وبروكسل والإمبراطور الألماني. أما الحلف البروتستانتي فضمَّ: إنجلترا والدنمارك والسويد والنمسا وبوهيميا ونصف ألمانيا، وفرنسا بسبب عدائها لآل هيسبورج، واشتعلت الحرب الدينية الفظيعة ثلاثين عاماً حالكة (١٦١٨-١٦٤٨م)، وكانت أشنع حرب دمّرت جيلاً كاملاً في ألمانيا المنقسمة إلى شمال بروتستانتي وجنوب كاثوليكي، والتي تناقص سكانها من واحد وعشرين مليوناً إلى خمسة عشر مليوناً، أما بوهيميا فكاد سكانها ينقرضون فمن ثلاثة ملايين لم يبق إلا ثمانمائة ألف.

وتسببت الحرب الدينية في خراب القرى والمدن<sup>(١)</sup> وانتشار الأوبئة والطاعون حتى أكل الناس القلط والجيف، ووجد الموتى وفي أفواههم الحشيش، ولكثرة القتلى تعفن الهواء واستحالت الحياة. فمثلاً "فرانكفورت" الكاثوليكية ذبحت حاميتها كلها (٢٠٠٠ رجل) سنة (١٦٣١م)، ومدينة "مجدبرج" قاومت ستة عشر شهراً، ثم أبيضت عن آخرها، وقتل فيها ١٧ ألفاً من ٣٦ ألف ساكن، وأحرقت الكاتدرائية كلها، وجاء في وصف هذا الدمار: "لم يعد هناك شيء إلا الضرب والحرق والسلب والنهب. وفي حماة الغضب المسعور اجتاحت السنة النيران المدن العظيمة الفخمة التي قامت وسط الأرض كعروس جميلة، وعذب وأعدم الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، وسط ضجة رهيبية من صيحات وصرخات تمرق الفؤاد، بطريقة وحشية مخزية تقصر أية كلمات عن وصفها، وأية دموع عن ندبها والتوجع لها<sup>(٢)</sup>."

(١) انظر قصة الحضارة ج ٢٩ ص ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه ج ٢٩ ص ٢٠٧.

إن أكبر نتيجة لهذه الحرب المجنونة التي لم تشهد أوروبا مثيلاً لها - عدا الحربين العالميتين- أنه ولد من رحمها موجة يأس من الحاضر، وشك في العقيدة التي استبيحت باسمها الحرمات، وأحرقت المدن، وأزهقت الأرواح. ولعل أكبر خاسر من هذه الحرب الدينية التي اتخذت من أحكام التكفير مطيةً لتبريرها وشرعيتها هو النصرانية نفسها.

### ثالثاً: الآثار الفكرية للتكفير في النصرانية:

يمكن إجمال الآثار الفكرية لميراث العصور الوسطى النصرانية في جملة عناصر أهمها سقوط الكنيسة، ثم صعود العلمانية، وشيوع الإلحاد.

#### أ - سقوط الكنيسة:

لقد كان الإرهاب الفكري والقمع المقتنّ الفظيع الذي مارسه المحاكم الكنسية ضد الخارجين عن معتقداتها، أفراداً وجماعات تحت طائلة أحكام التكفير والتجديف والمهرطقة، ممّا قاد أوروبا إلى حروب دينية اصطلت بناها على مدار مائتي عام وخلفت اهتراء في البنية الاجتماعية والاقتصادية.

ينقل المؤرخون هذه النبوءة للمركيز "دار جنسون" سنة (١٧٥٣م): "قد يكون من الخطأ أن نعزو ضياع الدين في فرنسا إلى الفلسفة الإنجليزية التي لم تكتسب أكثر من نحو مائة فيلسوف في باريس، بدلا من إرجاعه إلى الكراهية التي أضمرها الفرنسيون لرجال الدين إلى أقصى الحدود. ستكون الثورة شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عن الإصلاح الديني، وهو خليط مشوش من الخرافة والحرية جاءنا من ألمانيا، ولما كانت أممتنا وقرننا قد استنارا بطريقة متباينة كل التباين، فإنهما سيسيران إلى حيث ينبغي لهما أن يسيرا سيطردان رجال الدين، ويلغيان مهمّة القساوسة، ويتخلّصان من كل الوحي والأسرار الغامضة، فلا يتحدث المرء في مصلحة رجال الدين، ولا يساندهم في دوائر المجتمع، إلا كان موضع سخرية واستهزاء، واعتبر جاسوساً لمحاكم التفتيش"<sup>(١)</sup>.



نعم، إن الحقيقة التاريخية ناطقة بجناية الكنيسة على نفسها، فطوال ألف سنة وهي مهيمنة بشراسة لا مثيل لها على مقاليد الحياة، حتى إن مصائر الملوك والباطرة كانت تتقرر في دهاليز الفاتيكان، فضلا عن السيِّف المصلت على رقاب المخالفين والمتأولين والمنشقين، الذين قضوا بنيران محاكم التفتيش ومقاصل دواوين التحقيق، ولا غرابة في أن نجد تراكما أدبيا أوروبيا تنوء بحمله المكتبات من الروايات والمسرحيات والأشعار الناقدة والحاقدة والمتهكِّمة على الكنيسة، ورموزها، وتاريخها الأسود. ولم ينبت من رماد المحارق إلا شجرة العلمانية التي سقيت بدماء المرتدين والمهرطقين والمجدِّفين.

#### ب - صعود العلمانية:

لا يمكن للباحث أن يغفل الدور الذي أنجزته الحركة الفكرية المتنامية في عصر النهضة، وخاصة تلك التي ناهضت الكنيسة وميراثها الفكري والقانوني والتي انتهت جهودها إلى إلغاء أحكام التكفير من العالم المسيحي. فالأسماء التي برزت في القرن السادس عشر والسابع عشر أمثال: فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٦٢م)، ورينه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠م)، وتوماس براون (١٦٠٥-١٦٧٠م)، وسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م)، وجون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) وبييرال (١٦٤٧-١٧٠٦م)، وغيرهم أسهموا في التمهيد لغلق الباب نهائيا أمام التاريخ المظلم للكنيسة<sup>(١)</sup>. هذه الأسماء وما تركته من جهود نقدية أفضت إلى ميلاد الحركة العلمانية المعادية للكنيسة، والتي ظهرت في مذاهب التألهيين والطبيعيين والماديين. مثل التألهيون الرافضون للدين الذروة في نقد النصرانية وكتبها وصفات ثالوثها، ومعجزات قدسها، وخوارق رهبانها.

(١) هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص: ١٤٠.

وتساوقا مع وقائع الثورة العلمية التي سطع فيها نجم "نيوتن"، قالوا بوجود إله مهندس محافظ على القوانين الناظمة للكون، ومن ثم كان رفضهم للمعجزات والحوارق، وقصص العهدين القديم والجديد<sup>(١)</sup>.

أخذ التتويريون على الكنيسة أنها: "تطلب من العقل فوق ما يحتمل، فكيف استطاع آدم الكائن المحدود أن يهين الله إهانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الإنسان الأولى؟ كيف يمكن تصور إله واحد في ثلاثة أقانيم؟ إله يتجسد؟ وإنسان يقوم من بين الأموات؟"<sup>(٢)</sup>.

وبرز من هؤلاء المناهضين للميراث الكنسي "توماس بين" (١٧٣٧-١٨٠٩م) صاحب كتاب "عصر العقل" والذي كان مشعلاً في تقويض الفكر الكنسي، مما تسبب في إعادة بعث قوانين محاربة التجديف في بريطانيا بين سنتي (١٨٢١-١٨٣٤م)، وكتابه الثاني "حقوق الإنسان" الذي كان ثورة في موضوعه، فاضطرت سلطات بريطانيا إلى حظره، وإصدار قانون يمنع الكتابات الشريرة والهمجية في ٢١ ماي ١٧٩٢م<sup>(٣)</sup>.

لكن الصوت الأكثر اسماعاً في هاته الحركة المعادية للكنيسة وأغلالها الفكرية كان من حظ الأديب الفرنسي فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م)<sup>(٤)</sup> الذي طفحت كتاباته الأدبية والفلسفية بالتنديد بما آل إليه الوضع الديني في أوروبا. ودارت عطاءاته الفكرية والأدبية حول التسامح الديني ونقد رجال الكنيسة والروح اللاهوتية المتعصبة، التي أحرقت أوروبا بحروبها الدينية

(١) هاشم صالح:مدخل إلى التتوير الأوروبي، ص ١٣٨.

(٢) تاريخ الحضارات العام(القرن الثامن عشر)ج٥ص٩٠.

(٣) رمسيس عوض: الإلحاد في الغرب ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٤) بدوي: موسوعة الفلسفة ج٢ص٢٠١/معجم طرابيشي ص٤٧٣/قصة الفلسفة ص٢٨٤.

ومحارقها المذهبية، وارتفعت صرخته: "اقضوا على الرجس" سنة (١٧٦٢م)<sup>(١)</sup>.  
 إن الفلسفة الحديثة التي بذر شذرتها ديكرات سرعان ما تفجرت قنابل  
 شديدة المفعول أتت على التراث الكنسي إلى أن أزاحتها من الحياة العامة<sup>(٢)</sup>.  
 إن منهج الشك الديكراتي تولد أعمالاً ناقدة للكتاب المقدس عند  
 سبينوزا، وبيانات نضالية عند فولتير، وأفضى إلى الإلحاد عند جان  
 مسيليه (١٦٧٨ - ١٧٣٣)<sup>(٣)</sup>، وديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤)<sup>(٤)</sup>، وهولباخ (١٧٢٣ -  
 ١٧٨٩م)<sup>(٥)</sup>، وقادت الأمور في الأخير إلى تحييد الإكليروس من الهيمنة على  
 مفاصل الحياة الدينية واليومية، وأنهت تبعات الردة، وأحلت محلها تدابير  
 التسامح مع المتدينين والملحدين والطبيعيين والتألهيين.

### ج- شيوع الإلحاد:

من المعلوم أن الأصوليين الكاثوليك سخروا كل إمكاناتهم للتضييق  
 على الخارجين على عقائد ومقررات الكنسية الدينية والعلمية، ولأجل هذا لم  
 تتوقف مكاتب المراقبة الكنسية عن إصدار التحريمات المتوالية ضد  
 الأشخاص ومؤلفاتهم العلمية والأدبية والفلسفية المناهضة لمواريث عصور  
 الإيمان، مستعينة بالسلطات الزمنية.  
 ولأجل هذا انتشرت حرب المنشورات المتبادلة، وحيث إن كل ممنوع  
 مرغوب فيه، فقد كانت وسيلة المنع والمصادرة ذات أثر مضاد لمراد الكنيسة،  
 فكان الإلحاد والتشكيك في العقائد يسري في أوروبا سريان النار في الهشيم،  
 نتيجة لشيوع فعل المصادرة والتحريم وغياب الحوار والجدل العلمي.

(١) قصة الحضارة ج٣٨ ص ١٩٥.

(٢) حسن حنفي: مقدمة رسالة في اللاهوت والسياسة ص ١١.

(٣) قصة الحضارة ج٣٨ ص ١٠.

(٤) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٠ / معجم طرابيشي ص ٢٩٥.

(٥) الحفني: موسوعة الفلسفة ج٢ ص ١٤٩٠ / معجم طرابيشي ص ٧١٦.

يصف " دارجنسون" الوضع الشائئ ضدّ الكنيسة بقوله: " إن دين الوحي أصبح يتلقى الضربات من كل الجهات، والشيء الذي يثير الشكّاكين أو المرتابين أكثر هو الجهود التي يبذلها العبّاد والنسّاك، ثم بشكل أخص جماعة الجانسيين، إنهم يغضبون ويشتمون ويريدون إقامة محاكم التفتيش على الكتابات والمخطوطات على الأرواح والعقول، إنهم يببالغون في الظلم والتعصّب....إن هذه الرياح المضادّة للنظام الملكي قد أتت من جهة إنجلترا، وبما أن الفرنسي يزاود دائماً على الأجنب، فإنه يذهب بعيداً أكثر في الوقاحة والسفاهة"<sup>(١)</sup>.

لا تبدو هذه الشهادة ضدّ الكنيسة غريبة إذا استعرضنا قائمة الكتب الممنوعة التي دمغ أصحابها بالردة والتجديف فمثلاً: قام برلمان باريس الذي سيّطر عليه الكاثوليك الجانسينيون بتحريم الرسائل الفلسفية لفولتير سنة (١٧٣٤م)، كما أدين كتاب روح لقوانين "لمونتسكيو" سنة (١٧٥٠م)، وكذا كتاب التاريخ الطبيعي للعالم "بوفون"<sup>(٢)</sup>، وحظرت موسوعة "ديدرو" لأنها صارت بؤرة للزندقة والإلحاد<sup>(٣)</sup>، والعهد الجديد "لجان مسيليه"، ورسالة العميان "لديدرو". وكتاب "النصرانية المهتوكة الستر، أو فحص مبادئ الدّين المسيحي وأفاعيله" "لهولباخ" سنة (١٧٦٧م)<sup>(٤)</sup>، كما حظرت مقالاته وكتبه مثل "الكنيسة بغير قناع" "القساوة الدينية"، و"تحطيم الجحيم"، و"المسيحية في خطر" التي ذكر فيها:

" أن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة لتحول بينهم وبين مناهضة

(١) هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ٣٢٢.

(٢) مدخل إلى التنوير الأوروبي ص ٣٢٣.

(٣) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٠.

(٤) طرابيشي: معجم الفلاسفة ص ٧١٧.

المساوي والمظالم التي يعانونها من حكامهم، وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضوا على الناس أن يعانون وأن يحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية، وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في الحياة الآخرة، إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين في هذه الحياة الدنيا<sup>(١)</sup>.

وعليه فإن الفتاوى التكفيرية الكنسية وأجهزة الرقابة وأحكام القتل والسجن، أو النفي لم تزد في وقف الحركة العلمانية المعادية، وإنما أدت إلى تسريع وفاة أحكام التكفير من العالم النصراني.

وهكذا كان التعدد الطائفي والصعود العلماني معجلاً بإنهاء سطوة محاكم التفتيش وسلطة رجال الدين مما جعل البلدان الثلاثة فرنسا وإنجلترا وألمانيا تتباهى بكثرة التحلل من الدين وتتسابق في الثورة على الموروث، وفيها تصاعدت وتيرة الدعوة إلى الإلحاد، وهناك ترعرعت المذاهب المادية، وصارت المفاخرة باللاذنين هي السمة الغالبة على مفكري تلك العصور.

ولم تكن هذه النتيجة السلبية إلا من تطرف الكنيسة في حبس أنفاس الناس ومحاسبتهم على أفكارهم ومتابعة توجهاتهم، وكان الخاسر الخسارة الكبرى من تلك الهيمنة هو الدين نفسه، وعليه فإن أوروبا الجديدة والتي أصبحت تحت هيمنة الدين الجديد دين الحريات المطلقة والاعتقاد نبذت أحكام التكفير والهرطقة وحجرت على الكنائس التي لم تعرف من قبل إلا لغة التكفير ضد مخالفيها. أما الحوار والمراجعة فهي مؤجلة إلى حين.

(١) قصة الحضارة ج ٢٨ ص ١٢٧، مع العلم أن هذا الكتاب طارده البرلمان والكنيسة معا، فقد حكم على بائع جوال بالتجديف في السفن الشراعية خمس سنوات، وعوقب غلام أعاد بيعه ثانية بتسع سنوات تجديف في السفن الملكية.

## الخاتمة

إن الميراث التكفيري بحق وبغير حق كان سمة بارزة للنصرانية في داخل طوائفها ومللها المتعددة، والسبب الأبرز لذلك هو التنكّب عن هدي الله تعالى بالتحريف الذي نال الوحي المنزل، حيث استعيض عن الشريعة السماوية بأقوال الأحيار والرهبان الذين صيّرُوا أرباباً من دون الله، وهكذا حلت البدعة مكان الدين، وأكل السحت بصكوك الغفران التي طال أمدّها واتسع نطاقها باتساع دائرة التكفير لكل مخالف لمعتقدات الكنيسة وأقوال باباوتها الذين لم يكفوا عن ملء خزائنتهم ببراءات التحريم وأحكام التكفير الفردي والجماعي لكثير من الطوائف القديمة والحديثة. ولأجل ذلك نصبت أعواد المشانق ومنصات المحارق للمخالفين، وحورب العلم، واتهم الكتاب، وطورد الناقدون للكتاب المقدس المحرف، وزج بالعلماء المشككين في مقالات الكنيسة المناهضة للحقيقة العلمية في السجون، ولم تحسم المعركة إلا بصعود العلمانية في أوروبا وتحييد الكنيسة والإعلاء من شأن حقوق الإنسان. لأن النصرانية المحرفة لن تحمل الخير للبشر، لأنها أقوال البشر القاصرين وليست تنزيلاً من الحكيم الحميد.

ولا عجب أن كل المواثيق الحديثة دولية كانت أو إقليمية تصدرتها مبادئ الحريات، وكان التاريخ المظلم لمحاكم التفتيش ومنصات الحرق قد شكّل هاجساً لا شرطياً وواقعاً شرطياً لوجود الإنسان الأوروبي الحديث، وجود لم تتحقّق هويته إلا في الحرية والتحلل من أغلال الكنيسة والانعتاق من نظمها وفلسفتها. إنها عاقبة التكفير المفرط، دون بينة أو برهان، وعاقبة من نكص عن هدي الله القويم، واختار أن يستعجل الحساب الدياني، ويأتي بالجنة والنار قبل أوأانهما، فلم يبؤ إلا بخسارة الدين أمام الإلحاد والتتوير

المظلم بالمادية المحادة لله ورسله، فلن ينتج التكفير إلا الاحتراب المذهبي، الذي تعمى معه الأبصار، فلا ترى إلا الخراب والفناء، إنها عاقبة الأخسرين الضالين عن دين الله الخاتم ورسوله الهادي إلى الصراط المستقيم.

### نتائج البحث:

يمكننا أن نخلص من هذا البحث المتعلق بالتكفير في داخل الديانة النصرانية المحرفة. والذي يتناول جذور التكفير من خلال قراءة نصوص العهدين القديم والجديد، وقرارات المجامع المسكونية، وتطبيقات ذلك عند الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى التي سميت بعصور الإيمان، وآثار ذلك في بدايات عصر النهضة الأوروبية إلى ما يأتي:

١- أن التحريف الذي أصاب الكتب المقدسة، والانحراف الذي آلت إليه الديانة النصرانية جعل من مساحات التكفير والتبديع أصلا لا استثاء له في تعامل الطوائف النصرانية فيما بينها.

٢- أن البدعة والابتداع في داخل الدين، والعدول عن الوحي ووصايا الأنبياء المرسلين إلى أقوال الأحرار والرهبان الذين صيروا أربابا من دون الله، جعل من الشرائع المبتدعة وسيلة للصد عن الدين الحقيقي. وكانت النتيجة هي صعود العلمانية وشيوع الإلحاد في أوروبا المعاصرة.

٣- أن غياب الحوار والنقاش كان السمة المميزة للثقافة النصرانية، وهذا جعل لغة التكفير هي السائدة بين الكنائس النصرانية، وهو ما أدى بها إلى الاحتراب والقطيعة واستباحة الدماء والأعراض، وشواهد ذلك معروفة في الحروب الدينية التي صليت بها أوروبا مائتي عام.

٤- أن لغة المتطرفين واحدة في كل ديانة، فكما وجد التكفير الجماعي في النصرانية، كان مثيله في المجتمعات الإسلامية في حركات الخوارج والباطنية. وكما وجد التقتيل الجماعي للأصول والفروع في النصرانية،

فقد كان مثيله في ما يعرف عند الخوارج بالاستعراض، وفي قتل الغيلة عند الشيعة الباطنية.

٥- إن التكفير غير البين، والقسوة والعنف في التعامل مع المخالفين سيذهب بقيمة الدين ذاته، من حيث صعود العلمانية وشيوع الإلحاد والتحلل من الأخلاق، إذا كان الدين لا يضمن لأتباعه السلم الاجتماعي ولأهله الحرية الفكرية.

٦- العالم اليوم في حاجة شديدة لقراءة متبصرة بالتاريخ الأوروبي الوسيط، ولأفعال الكنيسة التي جنت على الأديان كلها بسبب ثقافتها التكفيرية المعادية للعلم، مما جعل الهيئات الأممية المعاصرة تصوغ القوانين والمواثيق الدولية والإقليمية والفئوية لحقوق الإنسان بعيدا عن هدي الله رب العالمين.

٧- وجوب قراءة فكر الجماعات التكفيرية المتطرفة في داخل الديانات، ومقارنة عقائدها وسلوكاتها لإبراز خطر الابتداع في الدين، إذ لم يكن الضلال والانحراف إلا بسبب البدعة في الدين، والزيادة في الشريعة، فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.



## قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير عز الدين: الكامل في التاريخ، ط ٦، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.
- أبو خليل شوقي: التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق، ط ١، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٣.
- أبو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، الحزائر، دار الشهاب، ١٩٨٩.
- البار محمد علي: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، ط ١، دمشق، دار القلم، - بيروت، الدار الشامية، ١٩٩٠.
- بدوي عبد الرحمن: موسوعة الفلسفة، ط ١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.
- بشتاوي عادل سعيد: الأمة الأندلسية الشهيدة، ط ١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م.
- بن ميمون موسى: دلالة الحائرين، ط ١، بيروت، المكتبة العلمية، ٢٠٠٧.
- البهي محمد: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ط ٢، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤.
- بيسار محمد: في فلسفة ابن رشد الوجود والخلود، ط ١، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٣.
- بيوري جون: حرية الفكر (ترجمة محمد عبد العزيز اسحاق) مصر، لجنة القاهرة للتأليف والنشر، د.ت.
- تشينسكي (يان دوبار): أصداء الزمن الكنيسة وصراع الوجود، ط ١، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٥.
- الجابري محمد عابد: في نقد الحاجة إلى الإصلاح، ط ١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- جنيبير شارل: المسيحية نشأتها وتطورها (ترجمة عبد الحلیم محمود)، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت.

- جيمس وليم: إرادة الاعتقاد (ترجمة محمود حسب الله)، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦
- الحفني عبد المنعم: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، ط٢، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩.
- الحضيرى زينب محمود: أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، ط١، بيروت، دارالتنوير، ٢٠٠٧.
- ديورانت ول: قصة الحضارة. ترجمة المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٨
- ديورانت ول: قصة الفلسفة (تفتح الله محمد المشعشع) ط٥، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٥م.
- زيتون عادل: العلاقات الكنسية والسياسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط١، دمشق، دار دمشق، ١٩٨٠.
- سخيطة بسام: قصة محاكم التفتيش في العالم. ط١. دمشق دار يابا. ٢٠٠٠
- سينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة (ت حسن حنفي) ط٢، القاهرة، مكتبة الانجلومصرية، ١٩٨١
- الشريف عبد المجيد: الفكر الإسلامي في الرد على النصارى. تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦.
- شلبي عبد الودود: الإسلام وخرافة السيف، ط١، القاهرة، مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٧.
- صالح هاشم: مدخل إلى التنوير الأوروبي. ط١، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٥.
- طرابشي جورج: معجم الفلاسفة، ط٢، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٧.
- الطويل توفيق: قصة الاضطهاد الديني بين الإسلام والمسيحية. ط١، القاهرة، دارالكتاب العربي، ١٩٤٧.
- ظاظا حسن: الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه. ط٤، دمشق، دار القلم، ١٩٩٩.
- عبد الجبار القاضي: تثبيت دلائل النبوة، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية-د.ت.
- عبده محمد: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، الجزائر، موفم للنشر، ١٩٩٠.

- العريني السيد الباز: تاريخ الدولة البيزنطية، ط ١، بيروت، دار النهضة العربية - د، ت
- العقيقي نجيب: المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ ج ١ ص ٢٥٠ و ٢٦٨.
- العهد القديم والجديد. ط. قسم جي. سي. مصر الجديدة سنة ١٩٩٥.
- عوض رمسيس: الإلحاد في الغرب، ط ١، القاهرة، دار سينما، ١٩٩٧
- عوض رمسيس: الهرطقة في الغرب، ط ١، القاهرة، دار سينما، ١٩٩٧.
- الغزالي محمد: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط ٣، القاهرة، دار نهضة مصر، ٢٠٠٣.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠.
- قسوم عبد الرزاق: مفهوم الزمان في فلسفة ابن رشد، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥.
- قنواتي جورج و لويس غردية: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية. ترجمة الدكتور صبحي الصالح والدكتور فريد جير) ط ١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨.
- كرم يوسف: تاريخ الفلسفة الحديثة، بيروت، دار القلم ( د ت ).
- كروزيه موريس: تاريخ الحضارات العام، ط ٢، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٧.
- لوثرمارتن: اليهود وأكاذيبهم (ترجمة محمود النجيري)، ط ١، الجيزة، مكتبة الناظفة، ٢٠٠٦.
- لوك جون: رسالة في التسامح (ت-عبد الرحمن بدوي) ط ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨.
- المسيري عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. ط ١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٩.
- المطعني عبد العظيم: الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة. ط ١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٧
- مهران محمد بيومي: بنو إسرائيل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩
- ويلتر جون: الهرطقة في المسيحية ( ترجمة جمال سالم) ط ١، بيروت، دار التنوير، ٢٠٠٧.